وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد التاسع عشر

وما قدروا الله حق قدره

[سورة الأنعام: ٩١]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ طَبْعَهُ وَتَوْزِيعَهُ
مَجَّانًا
بَعْدَ أَخْذِ الإِذْنِ مِنَ المُؤَلِّفِ

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي
للطباعة والتجليد
٠٠٢٠١٠١٩٩٩٥٥٥

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المجلد التاسع عشر

الموضوع | الصفحة

• **الفهرس** ٥

• **تمهيد** ١١

• **الفصل الأول:** ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه ٢٣

أولاً: ذكر بعض الآيات الواردة في ذلك ٣٥

الآية الأولى ٣٥

الآية الثانية ٤٥

الآيتان الثالثة والرابعة ٤٨

الآيتان الخامسة والسادسة ٤٩

الآية السابعة ٥٤

الآية الثامنة ٥٥

الآيتان التاسعة والعاشرة ٥٥

الآيات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة ٥٦

الآيات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة ٥٦

الآيات السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة ٥٦

الآية العشرون ٥٧

الآية الواحدة والعشرون ٥٩

الآية الثانية والعشرون ٥٩

الآية الثالثة والعشرون ٥٩

ثانيًا : ذكر بعض الأحاديث الواردة في عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه ٦٠
الحديث الأول ٦٠
الحديث الثاني ٦٠
الحديث الثالث ٦٠
الحديث الرابع ٦١
الحديث الخامس ٦٢
الحديث السادس ٦٢
الحديث السابع ٦٣
الحديث الثامن ٦٣
الحديث التاسع ٦٣
الحديث العاشر ٦٤
الحديث الحادي عشر ٦٤
الحديث الثاني عشر ٦٥
الحديث الثالث عشر ٦٦
الحديث الرابع عشر ٦٦
الحديث الخامس عشر ٦٦
الأحاديث السادس عشر والسابع عشر و الثامن عشر ٦٧
الحديث التاسع عشر ٦٧
الحديث العشرون ٦٨
ثالثًا: الآثار الواردة عن السلف في تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ٦٩
الأثر الأول ٦٩

الأثر الثاني ٦٩
الأثر الثالث ٧٠
الأثر الرابع ٧٠
الأثر الخامس ٧١
الأثر السادس ٧٢
الأثر السابع ٧٢
الأثر الثامن ٧٣
الأثر التاسع ٧٣
الأثر العاشر ٧٣
الأثر الحادي عشر ٧٤
الأثر الثاني عشر ٧٤
الأثر الثالث عشر ٧٥
الأثر الرابع عشر ٧٥
الأثر الخامس عشر ٧٦
الأثر السادس عشر ٧٦
الأثر السابع عشر ٧٦
الأثر الثامن عشر ٧٧
الأثر التاسع عشر ٧٧
• **الفصل الثاني**: ذكر بعض مظاهر عظمة الله عَزَّوَجَلَّ ٧٩
أولاً: عظمة الذات ٨١
ثانيًا: عظمة الصفات ٨٢

ثالثًا: عظمة الأفعال ٨٣
صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في سعة علمه وإحاطته ٨٧
صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في سمعه وبصره ٨٩
صور من عظمة الله تعالى في سعة جوده وكرمه وبره وإحسانه ٩٠
صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض ومن فيهما ٩١
صور عظمته سبحانه في رحمته ورأفته وحلمه: ٩٢
صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه وأمره وحكمته البالغة في ذلك ٩٣
أولهما: عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه المتجلية في الآفاق والأنفس ٩٤
أ) صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلق هذا الكون العظيم ٩٤
ب) صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلق الإنسان ١٠٥
ثانيهما: عظمة الله عَزَّوَجَلَّ المتجلية في أمره سبحانه ١١٢

• **الفصل الثالث: ذكر بعض مظاهر التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ وعلاماته** ١٢١
المظهر الأول من علامات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ: توحيده سبحانه لا شريك له ... ١٢٣
المظهر الثاني: إحسان الظن بالله عَزَّوَجَلَّ ١٢٧
المظهر الثالث: تعظيم حرمات الله عَزَّوَجَلَّ وحدوده ١٣٨
أ) تعظيم أوامره عَزَّوَجَلَّ ونواهيه والوقوف عند حدوده دون غلو ولا جفاء ... ١٣٩
ب) تعظيم حرمات الله المكانية والزمانية ١٤٢
ج) تعظيم حرمة دم المسلم ١٦٥
المظهر الرابع: تعظيم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ١٦٥
المظهر الخامس: تعظيم الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ١٨٣
المظهر السادس: تعظيم قدر الصلاة ٢٠٤
المظهر السابع من مظاهر تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ: تعظيم أسمائه سبحانه وصفاته ٢١٥

المظهر الثامن: تعظيم نصوص الكتاب والسنة وتلقيها بالقبول والتسليم ٢١٨
المظهر التاسع: الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ والإكثار من ذكره ودعائه ٢٤٧
المظهر العاشر: عدم الفتوى والقول على الله عَزَّوَجَلَّ بلا علم ٢٤٨
المظهر الحادي عشر: الموالاة والمعاداة في الله عَزَّوَجَلَّ. ٢٥٦
المظهر الثاني عشر: التواضع للحق وللخلق والتخلص من العجب ٢٥٦
المظهر الثالث عشر: توقير وإكرام ذي الشيبة من المسلمين ٢٦٠
المظهر الرابع عشر: الغيرة على الدين والأمر بالعروف والنهي عن المنكر ٢٦٢

• **الفصل الرابع:** من ثمرات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ٢٧٥
الثمرة الأولى: قوة الإيمان واليقين وتحقيق التوحيد: ٢٧٧
الثمرة الثانية: محبة الله عَزَّوَجَلَّ وتقديم محابه سبحانه على جميع المحاب ٢٧٨
الثمرة الثالثة: خشيته سبحانه والخوف منه وحده ٢٧٩
الثمرة الرابعة: الهيبة والحياء منه سبحانه ٢٨٢
الثمرة الخامسة: التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ وحسن الظن به سبحانه
والثبات أمام الشدائد ٢٨٧
الثمرة السادسة: الطمأنينة والسكينة والسعادة وذوق حلاوة
العبادة والنشاط لها ٢٩١
الثمرة السابعة: رقة القلب وخشوعه وبكاء العين ٢٩٣
الثمرة الثامنة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ للمعظمين له، ورحمته بهم، ونصرته
لهم ورضاه عنهم ٢٩٥
الثمرة التاسعة: كسب محبة الناس وتقديرهم وإلقاء القبول بينهم ٢٩٦
الثمرة العاشرة: قبول الأعمال عند الله عَزَّوَجَلَّ بصلاح السريرة ... ٢٩٦
الثمرة الحادية عشرة: دعاء الله عَزَّوَجَلَّ والتضرع والانكسار بين يديه ٢٩٧
الثمرة الثانية عشرة: أمن الأسرة المسلمة وطمأنينتها وأمن المجتمع ورخاؤه ٢٩٩
الثمرة الثالثة عشرة: التجافي عن الدنيا والإنابة إلى الله والدار الآخرة ٣٠٠

• الفصل الخامس: الأسباب الجالبة لتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ٣٠٣
السبب الأول: دعاء الله عَزَّوَجَلَّ وصدق الطلب منه سبحانه للفوز بهذه النعمة ٣٠٥
السبب الثاني: العلم بالله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وآثارها ... ٣٠٨
السبب الثالث: تدبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ٣١١
السبب الرابع: كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ مع التدبر وكثرة الطاعات مع الخشوع والإخبات ٣٢٤
السبب الخامس: مصاحبة المعظمين لله عَزَّوَجَلَّ المخبتين له، الذين إذا رؤوا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ٣٢٥
السبب السادس: الإكثار من تذكير النفس المستمر بعظمة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحاسبتها على ذلك وتربية الأهل والأولاد على ذلك ... ٣٢٦
السبب السابع: تذكر الثمرات اليانعة للتعظيم ٣٢٧
الخاتمة ٣٢٩
الوقفة الأولى ٣٢٩
الوقفة الثانية ٣٣٢
الوقفة الثالثة ٣٣٤
التقرير الأول ٣٣٤
التقرير الثاني ٣٣٥
التقرير الثالث ٣٣٦
التقرير الرابع ٣٤٥
التقرير الخامس ٣٤٨

*****

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يخلق الخلق ولم ينزل الكتب ولم يرسل الرسل إلا من أجل تحقيق أسمى الغايات، ألا وهي عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتوحيده وتحكيم شرعه. ولا يمكن أن تتحقق هذه الغاية إلا بتعظيم الخالق المعبود سبحانه وإجلاله، وتوقيره ومحبته.

ذكر المناوي في تعريف العبادة: «أنها فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا، وقيل هي تعظيم الله وامتثال أوامره»(١).

وقال القنوجي: «وهم أي السلف الصالح أشد تعظيمًا لله وتنزيهًا له عمّا لا يليق بجلاله»(٢).

وقال ابن منده في كتاب الإيمان: «والعباد يتفاضلون في الإيمان على قدر تعظيم الله في القلوب والإجلال له، والمراقبة لله في السر والعلانية»(٣).

---

(١) التعاريف (ص ٤٩٨)
(٢) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (ص ٤٨).
(٣) الإيمان (١/ ٣٠٠).

فالتعظيم إذن هو أساس العبودية والتوحيد، وهو الذي يعطي العبادة حلاوتها، وبفقده أو ضعفه يفقد التوحيد أو يضعف. وهذا بين وظاهر للمتأمل في صور الشرك وأحوال المشركين والكافرين، حيث لم يظهر الكفر على فرد أو مجتمع إلا وكان منشأ ذلك عدم تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم تقديره حق قدره، وصرف ذلك لمخلوقات تعبد من دون الله بالمحبة والتعظيم، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هو يدعو قومه ويعظهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣-١٤]، وقال سبحانه عن المشركين الذين اتخذوا من دون الله أندادًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

إن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله أمر تقتضيه الفطر السليمة والعقول الصحيحة الصريحة، والمتأمل في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ يجد أن تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه سبحانه لنفسه، وبيان مظاهر عظمته وتعظيمه في خلقه وأمره وشرعه، وحث عباده على تعظيمه وإجلاله، يكاد أن يأتي في كل سورة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما ذاك إلا لأثره واقتضائه لتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وتجريد العبودية له وحده، والبراءة من الشرك وأهله.

إن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم شعائره وحرماته وحدوده من أجلِّ العبادات القلبية، التي تثمرها معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا. وهذا العلم هو أشرف العلوم وأجلها، والذي لا يجوز لمكلف أن يجهله، بل يجب عليه أن يعلمه، ويربي ويعلم من استطاع من أهله وأولاده وغيرهم، هذا العلم الشريف ولا سيما في زماننا اليوم، الذي ضعفت فيه عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب، وتجرأ كثير من الناس على ربهم، وعلى نصوص وحيه وشرعه بالاستخفاف والاعتراضات، التي ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠﴾ [مريم: ٩٠]. قال الضحاك في تفسير قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ يتشققن من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ(١).

وعن أهمية هذا العلم يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن منزلة التعظيم: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب. وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإجلالاً، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته. قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: ١٣]، قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته... وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت»(٢).

(١) العظمة (١/ ١٤٣).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥)، باختصار.

وتتأكد الكتابة والحديث عن هذا الموضوع الجلل في واقعنا المعاصر، الذي طغت فيه المادة على حياة كثير من الناس، حيث قست القلوب، وقحطت العيون، وضعف العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، مما نشأ عنه ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته وخشيته ورجائه في القلوب.

ولبيان أهمية هذا الموضوع وضرورته أسوق بعض الأمور التي تؤكد أهميته وضرورة الكتابة فيه.

الأمر الأول:

كون تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ والخضوع والتذلل له هو الأساس الذي تبنى عليه كثير من أعمال القلوب التي تقوم عليها العبودية لله عَزَّوَجَلَّ: كالمحبة والحياء والخوف والرجاء والإخلاص واليقين. وبقدر قوة أو ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب تقوى أو تضعف هذه الأعمال. ومع هذه الأهمية فالقليل من الناس من يعرفها ويعتني بها ويربي نفسه وأهله عليها.

الأمر الثاني:

سبق الحديث في الرسالة السابقة من رسائل الوقفات التربوية عن عبودية التسليم، والموسومة بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وذلك بصورة مفصلة، وذكرت فيها أن من

أعظم وسائل التسليم والانقياد لله عَزَّوَجَلَّ تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، والتعبد له سبحانه باسمه (العظيم)، و(الكبير) وقد قادني ذلك الحديث بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ إلى ضرورة تخصيص رسالة كاملة يكون موضوعها تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتوقيره وإجلاله، فجاءت هذه الرسالة الموسومة بقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

الأمر الثالث:

ما ظهر في زماننا اليوم من ضعف شديد لهذا العمل القلبي العظيم عند كثير من الناس، وظهر هذا الضعف في صور كثيرة، منها: الجرأة على كلام الله عَزَّوَجَلَّ ووحيه المُنزل، وما فيه من الأخبار والأحكام، وكأنه كلام مخلوق، فتناولوه بالاعتراضات والاستخفاف، ومما ساعد من تفاقم هذه الحالة الخطيرة ما ظهر في زماننا اليوم من وسائل إعلامية، طغت على حياة الناس، وبث فيها أصحاب القلوب المريضة والمنافقون شبهاتهم وشهواتهم، من خلال الكلمة المقروءة والمسموعة والمشاهدة التي تضخ الكفر البواح، وقد بلغ من تأثير هذه الشبهات وضخها في أوساط الأمة أن تأثر بها بعض المنهزمين من كتاب ودعاة محسوبين على الإسلام ودعاته، فراحوا يواجهون هذه الحملات الخبيثة بمواقف انهزامية، وكأن الإسلام وأصوله وأحكامه في قفص الاتهام، فصاروا يرددون بعض الجمل الانهزامية دفاعًا عن الإسلام

زعموا، وذلك مثل قولهم: (روح الإسلام)، (جمال الإسلام)، (سمعة الإسلام) مقدمين بعض الأقوال المرجوحة، بل الشاذة على الدليل الصحيح بقصد التيسير على الناس، وتحسين سمعة الإسلام عند الأعداء.

بل إن بعض المتدينة والمنتسبين إلى العلم والدعوة قد تساهلوا في اقتنائهم لهذه الوسائل المفسدة والدخول على مواقع أهل الزندقة والكفر والإلحاد، التي تدعو إلى الانسلاخ من الإسلام والسنة والقراءة في كتبهم، فأفضى ببعضهم إلى استمراء سماع ومشاهدة وقراءة الكفر والشرك والضلال، وتوسعوا في ذلك بدعوى الرصد ومعرفة سبيل المجرمين، حتى صار أمرًا معتادًا أن يسمع الباطل والاستخفاف بالدين وبالله عَزَّوَجَلَّ ورسله وسب الصحابة والصالحين، وما ذاك إلا لكثرة الدخول والاطلاع على هذه المواقع والكتب، وقد حذرنا الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال في سورة النساء: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، والخطير في هذا الأمر أنه قد يؤول بصاحبه إلى ضعف الغيرة الإيمانية ورقة الدين وتهوين شأن الاستهزاء بالدين وأهله، فلا يتمعر الوجه غضبًا لله كما يجب، بل ربما علق بالقلب شيء من هذه الشبه الخطافة، فيصعب بعد ذلك التخلص منها.

إن إبـراز عظمـة الله عَزَّوَجَلَّ وبيانهـا للنـاس لمـن أعظم الأسـباب في التصـدي للهجمة الشرسـة من الكفـار والمنافقـين، الذين يثيرون الشـبهات والشـهوات للنيـل مـن أصول هـذا الديـن وأحكامه. إن امتـلاء القلب مـن تعظيـم الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم كلامه هـو الحصانة من هذه الهجمات.

الأمر الرابع:

مـا ظهـر في زماننا من تعظيم للرؤسـاء والعظـماء، وما يشرعونه من قوانـين وأنظمة، حيث رفعها عامة النـاس وعظموها، وأعطوها من القداسـة ما لا يصلح إلا لله عَزَّوَجَلَّ وشرعه ودينه، وكذلك ما ظهر مـن تعظيم الرجـال وتقديم أقوالهـم وآرائهم على نصـوص الكتاب والسنة. وكذلك ما ظهر في زماننا من تعظيم ما لم يعظمه الله عَزَّوَجَلَّ من الأمكنـة والأزمنة: كتعظيم الآثار، وتعظيم بعض الأيام، وتسـميتها عيدًا: كعيد الوطن، وعيد الأم.

الأمر الخامس:

قلـة الغـيرة عـلى محـارم الله عَزَّوَجَلَّ وانتهـاك حـدوده، فانتـشرت المنكـرات، وشـاع الفسـاد من غير إنـكار، إلا من قلة من المحتسـبين الذيـن عظمـوا الله عَزَّوَجَلَّ، وعظمـوا حرماتـه، فغـاروا عليهـا وأمروا ونهـوا، ومعلوم أن تعظيـم حرمات الله عَزَّوَجَلَّ والغضب لها من تعظيم

الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه بقدر تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلب يكون تعظيم حرمات الله والغيرة عليها.

الأمر السادس:

ما يلاحظ اليوم من قلة في الخشوع والخاشعين في حياتنا، فقل وندر وجود الخاشعين والمخبتين في عباداتهم، وقست كثير من القلوب، حتى لم يعد الوعظ يؤثر فيها، وما ذاك إلا من ضعف التعظيم في القلوب، إذ إن الإخبات والخشوع إنما ينشأ من إجلال الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه ومحبته والخوف منه، ولن يجد العبد حلاوة العبادة ولذتها دون التعظيم، وهذا ما يشكوه كثير من الناس اليوم.

الأمر السابع:

لأن شأن التعظيم وأثره في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات شأن عظيم، إذ لا شيء يدفع المسلم إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وترك معاصيه والتسليم له سبحانه مثل التعظيم والمحبة والخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، فبقدر تعظيم الأفراد والمجتمعات لله عَزَّوَجَلَّ يكون الانزجار عن كل ما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ، والمسارعة إلى كل ما يحبه سبحانه ويأمر به، ولذا يتأكد الحديث عن عبودية التعظيم لله تعالى في زماننا اليوم الذي كثر فيه المتجرأون على محارم الله عَزَّوَجَلَّ، والمجاهرون فيه بالمعاصي.

الأمر الثامن:

إن المتأمل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ليبهره كثرة الآيات التي فيها التعظيم لله تعالى: تارة بتنزيهه سبحانه عن كل نقص وسوء، وتارة بالثناء عليه وحمده على صفات الكمال والعظمة في خلقه وأمره، وتارة بإبراز عظمته في شرعه وحكمه وخلقه، وتارة بذكر النماذج من المعظمين له سبحانه من رسله وعباده الصالحين، وما فيها من التعظيم والإخبات والتذلل والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ. وتارة بذكر صفاته الحسنى وأسمائه العلا، التي تتضمن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله والخوف منه سبحانه. ومع كثرة هذه النصوص في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما ظهر في سيرته عليه الصلاة والسلام من مظاهر التعظيم والتنزيه لله تعالى، فإن الكتابة في هذا الموضوع قليلة وشحيحة مع أن مادة هذا الموضوع كثيرة وميسرة في الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح.

الأمر التاسع:

إن الحديث عن عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه هو مقتضى أسمائه سبحانه: (العظيم، والكبير، والمتكبر) ولا يتوقف ذلك على نوع محدد من العظمة، بل إن الحديث عن اسمه سبحانه (العظيم) سيؤدي إلى الحديث عن كثير من الأسماء والصفات، لأنه سبحانه عظيم في ذاته، عظيم في رحمته، عظيم في قوته وقدرته، عظيم في غناه وكرمه، عظيم

في حلمه وعفوه ومغفرته، عظيم في خلقه، عظيم في حكمه وحكمته، عظيم في عزته وجبروته، عظيم في علمه وإحاطته، عظيم في لطفه وخبرته، عظيم في سمعه وبصره، عظيم في عدله وجزائه. وبهذا يتأكد الاهتمام بهذا الأمر والكتابة فيه، وتعريف الناس به.

الأمر العاشر:

إبراز منهج السلف الصالح الذي تميز من بين المناهج المختلفة في إبراز عبودية التسليم لله عَزَّوَجَلَّ، الناشئة من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته، وتعظيم وحيه وحرماته، وتقديم ذلك على كل قول وعقل ورأي من آراء البشر. وهذا ما حرره السلف الصالح عبر أقوالهم وأفعالهم، ثم نقله جيلًا بعد جيل ليسير الخلف على طريق السلف.

الأمر الحادي عشر:

كثرة ما يثمره تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ إذا وقر في القلوب من الثمار اليانعة في الدنيا والآخرة، وقوة أثره وعلاجه لكثير من آفات القلوب وأمراضها، وسيأتي إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ ذكر بعض هذه الثمار في ثنايا الكتاب.

وبعد ذكر هذه الأمور التي تؤكد أهمية العناية بهذا الأمر العظيم والكتابة فيه، أذكر أهم الفصول التي يقوم عليها مضمون الكتاب، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع بهذه الكتابة كاتبها وقارئها ومستمعها، وأن يجعلها خالصة لوجهه سبحانه وصوابًا.

الفصـل الأول: ذكـر بعض الآيات والأحاديـث والآثار في بيان عظمة الله تعالى وتعظيمه.

- الفصل الثاني: ذكر بعض مظاهر العظمة لله تعالى.

- الفصل الثالث: ذكر بعض لوازم التعظيم ومظاهره وعلاماته.

- الفصل الرابع: ذكر بعض ثمرات التعظيم لله تعالى.

- الفصل الخامس: ذكر بعض الوسائل المؤدية لتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ.

- الخاتمة.

*****

الفصل الأول

ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه

ذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه

(العظيم): اسم من أسماء الله تعالى، ثابت في الكتاب والسنة، حيث ورد في القرآن في تسعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٣]. وفي السنة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»(١).

ويحسن قبل ذكر هذه الآيات والأحاديث والآثار التعرف على معنى «العظيم» في اللغة، ومعناه في حق الله تعالى، وكذلك التعرف على (حقيقة التعظيم ومعناه).

المعنى اللغوي (للعظيم):

(العظيم): خلاف الصغير، عَظُم يَعظُم عِظَمًا وعظامَهْ: كبُر. وهو عظيم وعُظام، وعَظُم الأمر: كبره، وأعظمه، واستعظمه: رآه عظيمًا فهو مُعْظم.

والتعظيم: التبجيل، والعظمة: الكبرياء.

---

(١) البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

والتعظيم في النفس: هو الكبر والزهو والنخوة. والعظمة والعظموت: الكبر(١).

أما معناه في حق الله تعالى:

قال الزجاجي: «(العظيم): ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه عَزَّوَجَلَّ، كذلك تعرفه العرب في خطبها ومحاوراتها، يقول قائلهم: من عظيم بني فلان اليوم؟ أي: من له العظمة والرئاسة، فيقال له: فلان عظيمهم، ويقولون: هؤلاء عظماء القوم أي: رؤساءهم وذوي الجلالة والرئاسة منهم...»(٢).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وهو العظيم بكل معنى يوجب   التعظيم لا يحصيه من إنسان»(٣)

فهو عظيم في كل شيء، عظيم في ذاته وفي أسمائه وصفاته، عظيم في رحمته، عظيم في قدرته، عظيم في حكمته، عظيم في جبروته وكبريائه، عظيم في هبته وعطائه، عظيم في لطفه وخبرته، عظيم في بره وإحسانه، عظيم في عزته وعدله وحمده، فهو العظيم المطلق، فلا

---

(١) انظر: الصحاح (٥/ ١٩٨٧)، ولسان العرب (٤/ ٣٠٠٤، ٣٠٠٥).
(٢) اشتقاق أسماء الله (ص١١١، ١١٢).
(٣) الكافية الشافية، البيت (رقم٣٢٢٢).

أحد يساويه، ولا عظيم يدانيه[١]، والعظيم: هو الذي يعظمه خلقه ويهابونه ويذلون له و يتقونه.

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العظيم الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت في الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم»[٢].

وأما (**حقيقة التعظيم**) فيوضحها الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

أحدهما: أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله، وأعظمه وأوسعه، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء، والعظمة، ومن عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة، كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى:٤- ٥].

---

(١) أسماء الله الحسنى للأشقر (ص١٤٦).
(٢) الحق الواضح المبين (ص٢٧).

وفي الصحيح عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يقول: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**»(١)، فلله تعالى الكبرياء والعظمة، والوصفان اللذان لا يقدر قدرهما، ولا يبلغ كنههما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله؛ فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم، وألسنتهم، وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته، ومحبته، والذل له، والانكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه: أن يُتَّقى حق تقاته؛ فيطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

ومن تعظيمه: تعظيم ما حرَّمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن تعظيمه: أن لا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه»(٢).

ألفاظ أخرى تتضمن معنى التعظيم:

وفي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من الآيات الكثيرة التي فيها تعظيم لله تعالى ما له صلة مباشرة بمعنى التعظيم، وما له صلة غير مباشرة.

---

(١) مسلم (٢٦٢٠).

(٢) الحق الواضح المبين (ص٢٧، ٢٨).

أولًا: الألفاظ التي لها صلة مباشرة بمعنى (التعظيم):

أ) **ألفاظ التسبيح ومشتقاتها**: وما أكثرها بالقرآن الكريم والسنة النبوية، حيث استفتحت بها بعض السور، وتكررت في أذكار اليوم والليلة والأذكار المطلقة.

والتسبيح يعني تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه وإجلاله، قال سبحانه ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.. الآية [الإسراء: ١]. وقال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومن ذلك ما ورد في أذكار الركوع: (سبحان ربي العظيم)، وأذكار السجود: (سبحان ربي الأعلى).

ب) **ألفاظ التكبير**: والتكبير هو التعظيم، والكبير هو الموصوف بالجلال وكبير الشأن، الذي كل شيء دونه، ولا شيء أكبر، ولا أعظم منه: ذاتًا وقدرًا، وعزة وجلالة، وقد جاء الحث في القرآن على تكبير الله عَزَّوَجَلَّ، ووصفه سبحانه بالكبير، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]. وقال سبحانه: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟

ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ووصف نفسه سبحانه (بالكبير) في آيات كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣]، وجاء في السنة الصحيحة التوجيه بكثرة ذكر الله بالتكبير في مواطن كثيرة منها:

١- قول: (الله أكبر) للدخول في الصلاة، فتحريم الصلاة التكبير، وتحليلها التسليم.
٢- وكذلك تكرار التكبير للانتقال من ركن إلى ركن في الصلاة.
٣- الإتيان به في الأذان والإقامة في أولها وآخرها وبصورة مكررة.
٤- عند الشروع في الطواف حول الكعبة، وعند محاذاة الحجر الأسود في كل شوط.
٥- عند الصفا والمروة في السعي بينهما.
٦- عند ركوب الدابة في السفر، وعند الارتفاع على كل شرف من الأرض.
٧- عند رمي الجمرات.
٨- مشروعيته مع التسبيح والتحميد عند النوم.
٩- مشروعيته مع التسبيح والتحميد عقب صلاة الفريضة.
١٠- مشروعيته عند رؤية الهلال.
١١- عندما يستيقظ الإنسان من نومه في أثناء الليل.

١٢- الذكر المطلق بالتحميد والتسبيح والتكبير، وأنهن الباقيات الصالحات.

١٣- قول (بسم الله، والله أكبر) عند ذبح الأضاحي والهدي والذبح عمومًا.

١٤- أثر التكبير في الجهاد في سبيل الله تعالى في هزيمة الأعداء.

١٥- مشروعيته في عشر ذي الحجة وأيام التشريق.

١٦- عند رؤية آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيم الله تعالى.

وأكتفي بهذه الأمثلة من المواطن التي يشرع فيها التكبير دون ذكر أدلتها طلبًا للاختصار، والاستفاضة لصحة كثير منها. وعن سر التكبير في مثل هذه المواطن، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا كله يبين أن التكبير مشروع في المواضع الكبار لكثرة الجمع، أو لعظمة الفعل، أو لقوة الحال، أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة، ليبين أن الله أكبر، وتستولي كبرياؤه في القلوب على كبرياء تلك الأمور الكبار؛ فيكون الدين كله لله، ويكون العباد له مكبرين، فيحصل لهم مقصودان: مقصود العبادة بتكبير قلوبهم لله، ومقصود الاستعانة بانقياد الطالب لكبريائه»(١).

وعن معنى (الله أكبر): يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي قول (الله أكبر) إثبات عظمته، فإن الكبرياء يتضمن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل، ولهذا

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٢٩).

جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: (الله أكبر)، فإن ذلك أكمل من قول الله أعظم»[١].

جـ) ألفاظ (تبارك): وهي كثيرة من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وهذا الوصف لله تعالى يختص به سبحانه لكثرة خيراته ونعمائه الدينية والدنيوية وكثرة بركتها، وهذا الاختصاص يدل على عظمته سبحانه، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تبارك: أي تعاظم وتعالى»[٢].

د) الخوف والخشية من الله عَزَّوَجَلَّ، وهما من لوازم التعظيم والإجلال والمحبة، وكلما كان العبد أعلم بالله عَزَّوَجَلَّ وأكثر تعظيمًا له كان خائفًا وجلًا خاشعًا له سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وكما قال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم**»[٣].

هـ) التوقير والتقدير: كما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، أي ما لكم لا تخافون لله عظمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، أي وما عظموا الله حق عظمته.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٣).
(٢) تفسير الطبري (٥/ ٢٣٧).
(٣) مسلم (٢٦٤٩).

ثانيـًا: ألفاظ ذات صلة غـير مباشرة تتضمـن التعظيم والإجلال:

مثـل إسـلام الوجـه لله، والسـجود والتحميد والاستسـلام، كـما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]، وقولـه سـبحانه عـن خليلـه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وأما في السجود كما في قوله سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وأمـا (التحميد) فكثير في القـرآن الكريم، وهو ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ مصحوبـًا بالمحبـة والتعظيـم، وقـد اسـتفتح الله عَزَّوَجَلَّ به بعض سـور القرآن، منها فاتحة الكتاب وسورة الأنعام وسورة الكهف وسورة سبأ وسـورة فاطـر. وتكرر الأمر بالحمـد في القرآن في مواطـن كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله سـبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل ٩٣]، وقوله سـبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

كما تكرر الذكر بالتحميد في أذكار اليوم والليلة، والأذكار المطلقة مع التسبيح والتكبير والتهليل.

وبعد: فإن مما سبق ذكره من بعض الألفاظ المتضمنة للتعظيم إن هي إلا غيض من فيض، مما في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومما في أدعية الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأذكار اليوم والليلة، التي كان يواظب ويحث عليها، لأن أسماء الله الحسنى التي امتلأ بها القرآن الكريم، وأدعية الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي في حقيقتها تعظيم وثناء وتذلل وإجلال لله عَزَّوَجَلَّ.

والتعظيم يزيد وينقص: كالإيمان، فمنه تعظيم واجب، ومنه تعظيم مستحب.

وبعد هذه التوطئة التي تبين لنا فيها معنى (العظيم)، وحقيقة التعظيم، وما رادفه من الألفاظ الأخرى، نذكر ببعض الآيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وبعض الأحاديث من أقواله وأفعاله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعض الآثار عن السلف الصالح، التي تتجلى لنا منها عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وما يجب على العباد من تعظيمه سبحانه وإجلاله.

أولا: ذكر بعض الآيات الواردة في ذلك.

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حقَّ قدره، حينَ عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.

وقال السدي: ما عظموه حق عظمته. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك، فلم يقدر الله حق قدره»[١].

ويقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية: «يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١١٣).

ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئًا. فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات -على سعتها وعظمها- مطويات بيمينه، فلا عظَّمه حق عظمته من سوَّى به غيره، ولا أظلم منه. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به»[(١)].

وقد روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه حديثًا عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هكذا بيده، ويحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب نفسه: «**أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم**». فرجف برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبر حتى قلنا ليخرن به»[(٢)].

وقد ختم الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ أبواب كتابه النفيس (كتاب التوحيد) بقوله: «باب في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ

(١) تفسير السعدي (ص٧٢٩).
(٢) أحمد (٥٤١٤)، وابن حبان (٧٣٢٧)، وقال شعيب الأرناؤوط (محقق الكتاب): وإسناده صحيح.

حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، وساق فيه الحديث المتفق على صحته، الذي رواه عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾» [الزمر: ٦٧][(١)].

ولعل قصد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ختم كتاب التوحيد بهذا الباب لشموله على الأسماء والصفات، فأراد أن يكمل الكتاب بتوحيد الأسماء والصفات، لأن ما سبق من أبواب الكتاب كله كان عن توحيد الألوهية، وما يضادها من أنواع الشرك، كما أراد التنبيه إلى أن من أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ من أي نوع من أنواع التوحيد لم يقدر ربه ويعظمه حق التعظيم، إذ إن تعظيم الرب فاطر السموات والأرض، الذي له الأسماء الحسنى يقتضي عبادته وحده والبراءة من الشرك وأهله. يقول الشيخ صالح الفوزان في شرح كتاب التوحيد عند هذا الباب: «وهذه آية عظيمة فيها عبر وعظات، وأن هذا الكون بسمائه

---

(١) البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦)، واللفظ للبخاري.

وأرضه وجباله وشجره ومائه وثرائه وجميع المخلوقات، يجعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة على أصابعه، ويجمعها في كفيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما صحت بذلك الأدلة، فهذا يدل على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصغر هذه المخلوقات الهائلة بالنسبة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويدل على عظمته وكبريائه وجبروته سبحانه، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ، أي ما عظموه حق تعظيمه. ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، هذا بيان لعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وسيأتي بيان ذلك في الحديث الذي يسوقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾. من كان يقدر على هذه الأمور، فإنه لا أعظم منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكل الكون -بمن فيه- صغير بالنسبة إلى خالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»(١).

وقد ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ في ثلاثة مواطن في القرآن الكريم:

الأولى: آية الزمر الآنفة الذكر.

الثانية: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية: «هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين، وزعم أن الله ما أنزل على بشر من

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (٢/ ٣١٦).

شيء، فمـن قـال هذا، فما قدر الله حق قـدره، ولا عظَّمه حق عظمته، إذ هـذا قدح في حكمتـه، وزعم أنه يترك عباده همـلًا، لا يأمرهم ولا ينهاهـم، ونفـي لأعظم منة، امتـن الله بها على عباده، وهي الرسـالة، التي لا طريق للعباد إلى نيل السـعادة، والكرامة والفلاح إلا بها، فأي قدح في الله أعظم من هذا؟»(١).

ويقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج، يقولون: إن الله لم يرسل رسولًا من البشر؛ ولم ينزل كتابًا يوحي به إلى بشر. بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتـاب من اليهود؛ ولم يكونـوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب، ولا أن الله أنـزل التوراة على موسـى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إنما هـم كانوا يقولون ذلك القـول في زحمـة العناد واللجاج، ليكذبوا برسـالة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم: ما أنزل الله على بشر مـن شيء؛ كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسـى من قبل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وهـذا القول الـذي كان يقوله مشركو مكـة في جاهليتهم، يقوله أمثالهـم في كل زمـان؛ ومنهـم الذيـن يقولونه الآن؛ ممـن يزعمون أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم.

---

(١) تفسير السعدي (ص٢٦٤).

لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديمًا وحديثًا، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم، ولكنها تظل خارج دين الله كله، وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى؛ جاء بها كل رسول؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول.

وهذا القول يقوله -قديمًا أو حديثًا- من لا يقدر الله حق قدره؛ ومن لا يعرف كرم الله وفضله، ورحمته وعدله، إنهم يقولون: إن الله لا يرسل من البشر رسولًا ولو شاء لأنزل ملائكة! كما كان العرب يقولون، أو يقولون: إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعني بالإنسان (الضئيل) في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض! بحيث يرسل له الرسل؛ وينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير! وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث! أو يقولون: إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل.. إنما هي أوهام الناس، أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين! كما يقول الماديون الملحدون!

وكله جهل بقدر الله سبحانه، فالله الكريم العظيم العادل الرحيم، العليم الحكيم، لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده، وهو خلقه، وهو

يعلـم سره وجهـره، وطاقاتـه وقـواه، ونقصه وضعفـه، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره، وأقواله وأعماله، وأوضاعـه ونظامـه، ليرى إن كانت صوابًا وصلاحًـا، أو كانت خطأً وفسـادًا. ويعلم سـبحانه أن العقل الذي أعطاه له، يتعرض لضغوط كثيرة من شـهواته ونزواتـه ومطامعه ورغباته، فضـلاً على أنه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سـلطان بسـبب تسـخيرها له من الله، وليـس مـوكلًا بتصور الوجود تصـورًا مطلقًا، ولا بصياغة الأسـس الثابتة للحياة»(١).

ويقول محمد رشـيد رضا في تفسـير المنار عند هذه الآية: «نطقت الآيـة بأن منكري الوحي ما عرفوا الله تعالى حق معرفته، ولا وصفوه بـما يجـب وصفه به، ولا عرفـوا كنه فضله على البشر، إذ قالوا: إنه ما أنزل شـيئًا على أحد منهم، فهي دليل على أن إرسـال الرسـل وإنزال الكتب من شئونه سبحانه، ومتعلق صفاته في النوع البشري، فإنها من مقتضى الحكمة، وأجل آثار الرحمة، فمن عرفه تعالى بصفات الكمال، التـي هـي متعلق ومصدر النظـام التام، في عالم الأرواح والأجسـام، كالحكمة البالغة، والرحمة السـابغة، والعلم المحيط، والقيام بالقسط، ونظـر في الآيـات البينـات في أنفـس البشر والآفـاق، فعلـم منها أنه أحسـن كل شيء خلقـه، وأتقـن كل شيء صنعه، وخلق الإنسـان في

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٩٥).

أحسن تقويم، مستعدًّا للعروج إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين، من عرف الله بما ذكرنا من الصفات، وعرف البشر بما أجملنا من الأحوال والمميزات، عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن إرسال الرسل وإنزال الكتب من آثار تلك الصفات التي هي مصادر النظام ومظاهر الكمال، قد توقف عليه إكمال استعداد البشر للعروج الذي أشرنا إليه، وتوقي الهبوط الذي ذكرنا به، فكان إرشاد الوحي سببًا لكل ارتقاء إنساني، في ركني وجوده الجسماني والروحاني، وقد فُتن في هذا العصر خلق كثير بترقي النظام الاجتماعي، وسعة التمتع الشهواني في شعوب كانت قد استفادت كثيرًا من هداية الوحي، ثم نسيت ذلك الأصل الذي هو مصدر كل الخير، فعتت عن أمر ربها ورسله، فمنهم من كفر بهم وحدهم، ومنهم من كفر بهم وبه، وادعوا أنهم قد استغنوا بعقولهم عن تلك الهداية، بل وصموها بما وسموها به من سمات الغواية، حتى إذا ما برح الخفاء، وفضح الرياء، وانكشف الغطاء، ظهر أن تلك المدنية، هي أفظع الوحشية والهمجية، فأيهم أوسع فيها علومًا وفنونًا وأدق نظامًا وقانونًا، هم أشد فتكًا بالإنسان وتخريبًا للعمران، وأن غاية هذا الترقي استعباد الأقوياء للضعفاء بتسخيرهم لخدمتهم، واستخراج خيرات الأرض لهم، استمتاعًا بالشهوات الحيوانية السفلى، وإسرافًا في زينة هذه الحياة الدنيا»[(١)].

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٥٠٩).

والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣- ٧٤]. يشرح ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المثل في هذه الآية، فيقول: «حقيق على كل عبد أن يستمع لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق ذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف ما هو أكبر منه، ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئًا مما عليهم من طيب ونحوه، فيستنقذونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب، الذي هو من أضعف الحيوان، ولا على الانتصار منه، واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله تعالى، وهذا المثل من أبلغ ما أنزل الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم، والشهادة على أن الشياطين قد تتلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة، حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات، والإحاطة بجميع المعلومات، والغنى

عن جميع المخلوقات، وأن يعمد إلى الرب في جميع الحاجات، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإجابة الدعوات، فأعطوها صورًا وتماثيل تمتنع عليها القدرة على مخلوقات الآلهة الحق، وأذلها وأصغرها وأحقرها، ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء آلهتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف، لو اختطف منهم شيئًا واستلبهم، فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه، لعجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب العابد، والمطلوب المعبود، فهو عاجز متعلق بعاجز»[1].

ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الآيات الثلاث السابقة، التي تكرر فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ فيقول: «والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ما قدروا الله حق قدره في ثلاثة مواضع؛ ليثبت عظمته في نفسه، وما يستحقه من الصفات، وليثبت وحدانيته، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وليثبت ما أنزله على رسله، فقال في الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]، وقال في الحج: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، وقال في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

(١) الأمثال في القرآن (ص٤٦).

وفي المواضـع الثلاثـة ذم الذيـن ما قـدروه حق قدره مـن الكفار، فـدل ذلك عـلى أنه يجب عـلى المؤمن أن يقـدر الله حق قـدره، كما يجب عليـه أن يتقيـه حـق تقاتـه، وأن يجاهـد فيـه حـق جهـاده، قـال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[الحج: ٧٨]، وقـال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، والمصدر هنا مضاف إلى المفعول، والفاعل مراد أي حق جهاده الذي أمركم به، وحق تقاته التي أمركم بها، واقدروه قدره الذي بينـه لكم وأمركم به، فصدقوا الرسـول فيما أخبر، وأطيعوه فيما أوجب وأمر. وأما ما يخرج عن طاقة البشر، فذلك لا يذم أحد على تركه، قالت عائشة: (فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو»[(١)].

ودلـت الآيـة عـلى أن له قـدرًا عظيمًا، لا سـيما قولـه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧][(٢)].

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

قـال ابـن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآيـة: «﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي عظمـةً، قالـه ابـن عباس ومجاهـد والضحـاك. وقال ابـن عباس: لا تعظمون الله حق عظمته. أي: لا تخافون من بأسه ونقمته»[(٣)].

(١) البخاري (٥١٩٠)، مسلم (٨٩٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٣٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٣).

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون لله عظمة، وليس لله عندكم قدر. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: خلقًا من بعد خلق في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التميز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم»(١).

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية: «قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف، أي ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة، أي عذر لكم في ترك الخوف من الله؟ وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء ابن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثوابًا ولا تخافون له عقابًا؟ وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس: ما لكم لا تخشون لله عقابًا، وترجون منه ثوابًا؟ وقال الوالبي والعوفي عنه: ما لكم لا تعلمون لله عظمة؟ وقال ابن عباس أيضًا ومجاهد: ما لكم لا ترون لله عظمة؟ وعن مجاهد والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمة؟ قال قطرب: هذه لغة حجازية وهذيل وخزاعة ومضر يقولون: لم أرج: لم أبال. والوقار: العظمة. والتوقير: التعظيم. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة؟

(١) تفسير السعدي (ص٨٩٩).

كأن المعنى: ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان؟ وقال ابن كيسان: في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرًا. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤدون لله طاعة؟ وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا، ولا تشكرون له نعمة؟ وقيل: ما لكم لا توحدون الله، لأن من عظمه فقد وحده؟ وقيل: إن الوقار الثبات لله عَزَّوَجَلَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، أي اثبتن، ومعناه ما لكم لا تثبتون وحدانية الله تعالى، وأنه إلهكم لا إله لكم سواه. قال ابن بحر: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده، قال ابن عباس: أطوارًا يعني نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، أي طورًا بعد طور إلى تمام الخلق، كما ذكر في سورة المؤمنين. والطور في اللغة: المرة، أي من فعل هذا وقدر عليه، فهو أحق أن تعظموه، وقيل: أطوارًا: صبيانًا، ثم شبابًا، ثم شيوخًا، وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطوارًا، أي أنواعًا: صحيحًا وسقيمًا، وبصيرًا وضريرًا، وغنيًّا وفقيرًا. وقيل: إن أطوارًا اختلافهم في الأخلاق والأفعال»[1].

ويقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير من الناس، وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره. فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها. قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي لا تعاملونه معاملة

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٣٠٣).

من توقرونه. والتوقير العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا، ولا تشكرونه؟ وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة. وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته. وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم لو عظموا الله، وعرفوا حق عظمته، وحدوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه اجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره»(١).

الآيتان الثالثة والرابعة:

قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

يقول الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لآية الحج «يقول: كي تعظموا الله على ما هداكم، يعني على توفيقه إياكم لدينه وللنسك في حجكم»(٢).

ويقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي تعظموه وتجلوه (على ما هداكم)، أي: مقابلة لهدايته إياكم، فإنه يستحق أكمل الثناء، وأجل الحمد، وأعلى التعظيم»(٣).

(١) الفوائد (ص١٨٧).
(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٦٤١).
(٣) تفسير السعدي (ص٥٣٨).

وأما آية الإسراء فقد قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: «﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه عظمة تامة، ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر. أي صفه بأنه أكبر من كل شيء ... وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دخل في الصلاة قال: الله أكبر»(١).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير أضواء البيان: «وقوله ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه تعظيمًا شديدًا. ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمسارعة إلى كل ما يرضيه، كقوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، ونحوها من الآيات»(٢).

الآيتان الخامسة والسادسة:

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٤-٥].

ومن أحسن ما وقفت عليه من تفسير هذه الآيات ما ذكره الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أضواء البيان، حيث يقول: «واعلم أن سبب مقاربة السماوات للتفطر، في هذه الآية الكريمة، فيه للعلماء وجهان، كلاهما يدل له قرآن:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠/ ٣٤٥).
(٢) أضواء البيان (٣/ ١٩٠).

الوجه الأول: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن خوفًا من الله، وهيبة وإجلالًا، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الشورى: ٤]. لأن علوه وعظمته سبَّب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر.

وعلى هذا الوجه فقوله بعده: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مناسبته لما قبله واضحة؛ لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال، خوفًا منه وهيبة وإجلالًا، كما قال تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩-٥٠].

فهم لشدة خوفهم من الله، وإجلالهم له يسبحون بحمد ربهم، ويخافون على أهل الأرض، ولذا يستغفرون لهم خوفًا عليهم من سخط الله، وعقابه، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، لأن الإشفاق الخوف.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يعني لخصوص الذين آمنوا منهم، وتابوا إلى الله، واتبعوا سبيله، كما أوضحه تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

فقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يوضح المراد من قوله: ﴿لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ويزيد ذلك إيضاحًا قوله تعالى عنهم: إنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]، لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكفار.

الوجه الثاني: أن المعنى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض جَلَّ وَعَلَا، من كونه اتخذ ولدًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهذا الوجه جاء موضحًا في سورة مريم، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٣]، كما قدمنا إيضاحه.

وغاية ما في هذا الوجه أن آية الشورى هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات، وقد جاء ذلك موضحًا في آية مريم المذكورة. وكلا الوجهين حق.

وقد قدمنا آنفًا أنه دلت عليه آية مريم المذكورة، وعليه فمناسبة قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه، فإن الملائكة بخلافهم، فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته.

ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾» [فصلت: ٣٨][(١)].

وأما الآيات التي ذكرها الشيخ الشنقيطي آنفًا في سورة مريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآيات:

«وقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظامًا للرب وإجلالًا، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد:

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٣٩-٤١).

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحدُ

قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبدالله، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين... وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن فَرَقًا من عظمة الله.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: غضبًا لله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال ابن عباس: هدمًا. وقال سعيد بن جبير: ﴿هَدًّا﴾ ينكسر بعضها على بعض متتابعات.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبدالله بن سويد المقبري، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسعر، عن عون بن عبدالله قال: إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكر لله عَزَّوَجَلَّ؟ فيقول: نعم، ويستبشر. قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾... وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت النار، حين قالوا

مـا قالوا. وقال الإمام أحمـد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبدالرحمن السلمي، عن أبي موسى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنـه يشرك به، ويجعل له ولد، وهو يعافيهم ويدفـع عنهم ويرزقهم**» (١). أخرجـاه في الصحيحين، وفي لفـظ: «**أنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم**» (٢).

وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا﴾، أي: قـد علـم عددهـم منـذ خلقهم إلى يـوم القيامـة، ذكرهم وأنثاهـم، وصغيرهم وكبيرهم» (٣).

الآية السابعة:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا

(١) مسند أحمد (١٩٦٣٣)، وتمام في فوائده (١٧٢)، ولم أجده بهذا اللفظ في الصحيحين.
(٢) البخاري (٧٣٧٨)، مسلم (٢٨٠٤).
(٣) تفسير ابن كثير، ت سامي سلامة (٥/ ٢٦٦-٢٦٧).

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

الآية الثامنة:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨، ٢٩].

الآيتان التاسعة والعاشرة:

وفيهما بيان سعة علمه وعظمته وإحاطته، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨-١٠]، والآيات في سعة علم الله عَزَّوَجَلَّ وشمول إحاطته كثيرة.

الآيات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة:

وفيها بيان عظمة رحمته وسعة مغفرته، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله سبحانه عند دعاء حملة العرش للمؤمنين من عباده: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، والآيات في سعة مغفرته ورحمته كثيرة.

الآيات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة:

وفيها بيان عظمة ملك الله عَزَّوَجَلَّ وعظمة قدرته، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، والآيات في ذكر عظمة قدرة الله وقوته وسعته كثيرة.

الآيات السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة:

وفيها بيان سعة كرمه ورزقه وفضله العظيم سبحانه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ

كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٩]، والآيات في بيان سعة كرمه عَزَّوَجَلَّ ورزقه وفضله كثيرة جدًّا.

الآية العشرون:

وهي التي تضمنت بعض أسمائه سبحانه الدالة على عظمته وكبريائه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣].

فمن بين هذه الأسماء الواردة في الآية الكريمة: (الملك)، وهو الذي لا ملك فوقه ولا شيء دونه، والله عَزَّوَجَلَّ هو الملك على الحقيقة، وملك غيره عارية ومحدودة زائلة، والله عَزَّوَجَلَّ هو المتصرف في الممالك كلها وحده، تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه معارض، وتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك[(١)]، وهو سبحانه مالك يوم الدين والدنيا.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص٢٢٨، ٢٢٩).

ومن هذه الأسماء الواردة في الآية اسمه سبحانه (القدوس)، وهو المنزه من كل شر ونقص وعيب، المتنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والقدوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله[١].

ومن هذه الأسماء (المتكبر)، وهو ذو الكبرياء المتعالي عن صفات خلقه، المتكبر على عتاتهم، والكبرياء: العظمة. وهو المتكبر المنزه عن كل سوء، المتكبر عن ظلم عباده.

ومن هذه الأسماء الواردة في الآية السابقة اسمه سبحانه (الجبار): وهو العالي فوق خلقه، القاهر لهم بقدرته، الذي يجبر كسر الكسير، ويغني الفقير. والجبار من أسماء العظيم: كالكبير والمتكبر والملك والعظيم القهار.

ومن هذه الأسماء الحسنى الواردة في الآية اسمه سبحانه (العزيز)، وهو الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته[٢].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٥/ ٤٨٧).
(٢) انظر: تفسير السعدي (ص٩٤٦).

الآية الواحدة والعشرون:

قـولـه تعـالى في أعظـم آيـة في كتـاب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الآية الثانية والعشرون:

قوله تعـالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

الآية الثالثة والعشرون:

في سعة سمعه سبحانه وإحاطته بجميع المسموعات والمبصرات، قـال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

عـن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالـت: «الحمـد لله الـذي وسـع سـمعه الأصـوات، لقـد جـاءت المجادلة خولة إلى رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلمته في جانب البيت، وما أسـمع ما تقـول، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ ﴾... الآية»[(١)].

(١) النسائي (٦/ ١٦٨)، والبخاري معلقًا.

ثانيا: ذكر بعض الأحاديث الواردة في عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه.

الحديث الأول:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾» [الزمر: ٦٧][(١)].

الحديث الثاني:

عن ابن عمر مرفوعًا: «**يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»[(٢)].

الحديث الثالث:

عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا

(١) البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).
(٢) مسلم (٢٧٨٨).

قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هكذا بيده، يحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم. فرجف برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبر، حتى قلنا: ليخرن به»(١).

يعلق الشيخ عبدالرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الأحاديث فيقول: «قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته، وقد تعرف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة وأئمتها، ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان»(٢).

الحديث الرابع:

عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخمس كلمات فقال: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل**

---

(١) مسند أحمد (٥٤١٤)، وأصله في مسلم (٢٧٨٨).
(٢) تيسير العزيز الحميد (ص٦٧).

قبل عمل النهار، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه، ما انتهى إليه بصره من خلقه»(١).

الحديث الخامس:

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرابي فقال: يا رسول الله: جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونُهكتِ الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويحك! أتدري ما تقول؟**»، وسبح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «**إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله، إن عرشه على سماواته لهكذا**». وقال بأصابعه مثل القبة عليه(٢).

الحديث السادس:

وعن ابن عباس قال: قال رجل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما شاء الله وشئت، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أجعلتني لله ندًّا؛ لا، بل ما شاء الله وحده**»(٣).

---

(١) مسلم (٤٤٥).
(٢) رواه أبو داود (٤٧٢٨)، وقال الذهبي: إسناده حسن. وضعفه بعض أهل العلم، منهم الألباني.
(٣) أحمد (١٧٤٢).

الحديث السابع:

عن رجاء بن حيوة عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا أراد الله** عَزَّ وَجَلَّ **أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم بالوحي أخذت السماوات رجفة»**، أو قال: **«رعدة شديدة خوفًا من الله** عَزَّ وَجَلَّ**، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا، وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، وينتهي جبريل بالوحي، حيث أمره الله** عَزَّ وَجَلَّ **من السماء والأرض»**(١).

الحديث الثامن:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم»**(٢).

الحديث التاسع:

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إني أرى ما لا ترون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع**

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (ص٢٠٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص٤٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٠٠)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢١٦)، وابن الأعرابي في معجمه (٨٦٣).

(٢) مسلم (٤٧٩).

إلا وملـك واضع جبهته سـاجدًا لله تعـالى، والله لو تعلمـون ما أعلم لضحكتـم قليـلاً ولبكيتم كثـيرًا، وما تلذذتم بالنسـاء عـلى الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى» (١).

الحديث العاشر:

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول عند الكـرب: «**لا إله إلا الله العظيـم الحليـم، لا إلـه إلا الله رب العـرش العظيـم، لا إلـه إلا الله رب السـموات ورب الأرض ورب العرش الكريم**» (٢).

الحديث الحادي عشر:

عـن سـعيد بـن عبدالعزيز عـن ربيعة بـن يزيد عـن أبي إدريس الخـولاني عـن أبي ذر الغفـاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عـن النبـي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيـما روى عـن الله تبـارك وتعـالى أنـه قال: «**يا عبـادي إني حرمـت الظلم عـلى نفسـي وجعلته بينكـم محرمًا فلا تظالمـوا، يا عبـادي كلكم ضال إلا مـن هديتـه فاسـتهدوني أهدكـم، يـا عبـادي كلكم جائـع إلا من أطعمته فاسـتطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسـوته**

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وقال: حسن غريب. وحسنه الألباني.
(٢) البخاري (٦٣٤٦)، مسلم (٢٧٣٠).

فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

قال سعيد أحد رواة الحديث: «كان أبو إدريس الخولاني إذا حدَّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه»[(١)].

الحديث الثاني عشر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «**إن العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما عذبته**»[(٢)].

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٢)، وقال الألباني: صحيح.

الحديث الثالث عشر:

عن عبدالله بن الشخير قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «**السيد الله**» فقلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشيطانُ**»(١).

الحديث الرابع عشر:

عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من استعاذ بالله** عَزَّ وَجَلَّ **فأعيذوه، ومن سأل بوجه الله** عَزَّ وَجَلَّ **فأعطوه**»(٢).

الحديث الخامس عشر:

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رجلاً يحلف بأبيه، فقال: «**لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرضَ بالله فليس من الله**»(٣).

---

(١) أبو داود (٤١٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٥٥).
(٢) أبو داود (٥١١٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٣).
(٣) ابن ماجه (٢١٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤٧).

الأحاديث السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر:

أذكار الركوع في الصلاة:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فأما الركوع فعظموا فيه الرب**»(١).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**اجعلوها في ركوعكم**».. الحديث(٢).

عن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قمت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما ركع مكث قدر سورة البقرة، ويقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»(٣).

الحديث التاسع عشر:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أن يذكر تعظيم الله، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يبعد من رزق**»(٤).

---

(١) مسلم (٤٧٩)، وهو جزء من حديث حال مرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي توفي فيه.

(٢) أبو داود (٨٦٩)، وحسنه الألباني.

(٣) النسائي (١٠٤٩)، وصححه الألباني في المشكاة (٨٨٢).

(٤) مجمع الزوائد (١٢١٢٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير شيخ الطبراني، ورواه أحمد في المسند بلفظ آخر (٤٧٤).

الحديث العشرون:

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحده، فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله أيما آية نزلت عليك أفضل؟ قال: «**آية الكرسي، ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**»(١).

(١) ابن جرير في تفسيره (٥/ ٣٩٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، بمجموع طرقه (١/ ١٧٤ رقم١٠٩).

ثالثا: الآثار الواردة عن السلف في تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

الأثر الأول:

عن مسروق قال قلت لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أمتاه هل رأى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه؟ فقالت: «لقد قفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث، من حدثكهن فقد كذب. من حدثك أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ... » الحديث[1].

الأثر الثاني:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر، ومشاوريه كهولًا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله»(١).

الأثر الثالث:

عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما اشتد برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعه، قيل له في الصلاة، فقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**». قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البكاء، قال: «**مروه فليصل**» فعاودته، فقال: «**مروه فليصل، فإنكن صواحب يوسف**»(٢).

الأثر الرابع:

عن وهب بن منبه قال: «بلغ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن مجلس، كان في ناحية بني سهم، يجلس فيه ناس من قريش يختصمون، فترتفع أصواتهم، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: انطلق بنا إليهم، فانطلقنا حتى وقفنا، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أخبرهم عن كلام الفتى الذي كلم به أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في بلائه. قال: فقلت: قال الفتى: يا أيوب، أما كان في عظمة الله وذكر الموت، ما يكل لسانك، ويقطع قلبك، ويكسر حجتك؟ يا أيوب، أما علمت أن لله عبادًا أسكتتهم خشية الله من

(١) البخاري (٤٦٤٢).
(٢) البخاري (٦٨٢).

غـير عـي، ولا بكم، وإنهم هم النبـلاء، الفصحاء، الطلقـاء، الألباء، العالمـون بالله وآياته، ولكنهـم إذا ذكروا عظمة الله، انقطعت قلوبهم، وكلت ألسـنتهم، وطاشـت عقولهم وأخلاقهم، فرقًـا من الله، وهيبة لـه، وإذا اسـتفاقوا من ذلك اسـتبقوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالأعـمال الزاكية، لا يسـتكثرون لله الكثير، ولا يرضون له بالقليل، يعدون أنفسـهم مع الظالمين الخاطئين، وإنهم لأنزاه أبرار، ومع المضيعين المفرطين، وإنهم لأكيـاس أقوياء، ناحلـون، ذائبـون، يراهم الجاهل فيقـول: مرضى، وليسوا بمرضى، قد خولطوا، وقد خالط القوم أمر عظيم»[1].

قال محمد بن الحسين: «هذه الأخبار تدل على ما وصفنا به العلماء والفقهـاء، فـإن قـال قائل: ولم داخـل العلماء هذا الإشـفاق الشـديد، وخافـوا مـن علمهم هـذا الخـوف كله؟ قيل لـه: علمـوا أن الله عَزَّوَجَلَّ يسائلهم عن علمهم: ما عملوا فيه؟ فجعلوا مسائلة الله نصب أعينهم، فألزموا أنفسهم شدة الحذر، وأخذوا بالثقة في كل أمرهم، إن قال قائل: فإن العلماء يسألون عن علمهم: ما عملوا فيه؟ قيل: نعم»[2].

الأثر الخامس:

قـال جعفر بن عبـدالله: «كنا عنـد مالك بن أنس فجـاءه رجل، فقال: يا أبا عبدالله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟

---

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ١٢١ رقم١٢٧٢)، والآجري في أخلاق العلماء (رقم٤٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٧٩).

(٢) أخلاق العلماء، للآجري (ص٧٤، ٧٥).

فـما وجـد مالـك من شيء مـا وجد مـن مسـألته، فنظـر إلى الأرض، وجعـل ينكت بعود في يده، حتى عـلاه الرحضاء- يعني العرق- ثم رفع رأسـه ورمى بالعود، وقال: الكيف منه غير معقول، والاسـتواء منـه غـير مجهول، والإيـمان به واجب، والسـؤال عنه بدعـة، وأظنك صاحب بدعة، وأمر به فأخرج»(١).

الأثر السادس:

كان أحمـد بـن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ إمام أهل السـنة إذا نظـر إلى نصراني أغمـض عينيـه، فقيل لـه في ذلـك، فقـال رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أقـدر أن أنظر إلى مـن افترى على الله وكـذب عليه»(٢)، فانظر كيـف كان تعظيم الله وتوقـيره في قلـب الإمام أحمد، يجعله لا يطيق النظر إلى من افترى على الله وكـذب عليه، وأي افتراء أعظـم من مقالة النصارى: إن لله ولدًا. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

الأثر السابع:

مـر الإمام أحمد مع ابنه عبـدالله على قاص يقص حديث النزول، فيقـول: «إذا كان ليلـة النصـف من شـعبان ينزل الله عَزَّوَجَلَّ إلى سـماء الدنيا، بلا زوال ولا انتقال، ولا تغير حال، يقول عبدالله: فارتعد أبي،

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٢٥).

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ١٠).

واصفر لونه، ولزم يدي، وأمسكته حتى سكن، ثم قال: قف بنا على هذا المتخرص، فلما حاذاه، قال: يا هذا رسول الله أغير على ربه عَزَّوَجَلَّ منك، قل كما قال رسول الله»(١).

الأثر الثامن:

قال عون بن عبدالله: «ليعظم أحدكم ربه أن يذكر اسمه في كل شيء، حتى يقول: أخزى الله الكلب، وفعل الله به كذا»(٢).

الأثر التاسع:

قال الخطابي: «وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قل ما يذكر اسم الله تعالى إلا فيما يتصل بطاعة»(٣).

الأثر العاشر:

عن جعفر بن سليمان قال: سمعت خليفة العبدي يقول: «لو أن الله لم يعبد إلا عن رؤية، ما عبده أحد، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء، فملأ كل شيء وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء، فمحا سلطان الليل؛ وفي السحاب المسخر بين

---

(١) انظر مقال (تعظيم الله تعالى وشعائره) في مجلة البيان (العدد ١٠١).
(٢) شأن الدعاء للخطابي (ص١٨).
(٣) شأن الدعاء (ص١٨، ١٩).

السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء، وفي الصيف؛ والله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم، حتى أيقنت قلوبهم بربهم؛ وحتى كأنما عبدوا الله تعالى عن رؤية»(١).

الأثر الحادي عشر:

قال الخطيب: «أنبأنا الجوهري، أنبأنا المرزباني، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى، حدثنا أبو العيناء قال: لما حج المهدي دخل مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يبق أحد إلا قام، إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم، هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه، فلقد قامت كل شعرة في رأسي»(٢).

الأثر الثاني عشر:

قال هرم بن حيان لأويس القرني: «أوصني. قال: توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك، وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئًا أشد عليك منهما؛ بينا قلبك معك ونيتك إذا هو مدبر، وبينا هو مدبر إذا هو مقبل، ولا تنظر في صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت»(٣).

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٠٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٤٣).
(٣) صفة الصفوة (٣/ ٥٥).

الأثر الثالث عشر:

وكتب عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بعض عماله: «أما بعد، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئًا إلا كان زائلًا عنهم باقيًا عليك، واعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ آخذ للمظلومين من الظالمين، والسلام»(١).

الأثر الرابع عشر:

قال الباجي: «خرج السلطان أيوب في يوم العيد في أبهة الملك، وأخذت الأمراء تقبل الأرض، فالتفت إليه الشيخ العز بن عبدالسلام وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟

فقال السلطان: هل جرى هذا؟

قال العز: نعم، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، يناديه بأعلى صوته والعساكر واقفون.

فقال السلطان: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال العز: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟!

فأمر السلطان بإبطال تلك الخانة.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٥).

فسـأله الباجـي: أما خفتـه؟ قال العز: والله يا بني، اسـتحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قدامي ... »(١).

الأثر الخامس عشر:

قال إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله، أو ذكر عنده، أو سـمع القرآن، ظهر به الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من بحضرته»(٢).

الأثر السادس عشر:

قـال ابن عيينة: «دخل هشـام الكعبة، فإذا هو بسـالم بن عبدالله، فقال: سـلني حاجة؛ قال: إني أسـتحيي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا قال: الآن فسـلني حاجة. فقال له سـالم: من حوائج الدنيا أم مـن حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا قال: والله ما سـألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها»(٣).

الأثر السابع عشر:

كان زيـن العابديـن عـلي بن الحسـين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قـام إلى الصلاة اضطرب وارتعد، فقيل له، فقال: تدرون بين يدي من أقوم وأناجي؟

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (٨/ ٢١٢).
(٢) حلية الأولياء (٨/ ٨٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٦).

وكان إذا توضأ للصلاة، اصفر لونه من شدة الوجل والحياء والخوف، واستشعار عظمة الله عَزَّوَجَلَّ [١].

الأثر الثامن عشر:

قال سليمان بن عبدالملك: «يا أبا حازم أوصني، قال: نعم، سوف أوصيك وأوجز: نزه الله تعالى وعظمه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. ثم قام، فلما ولى قال: يا أبا حازم هذه مئة دينار، أنفقها، ولك عندي أمثالها كثير، فرمى بها، وقال: والله ما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي، إني أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هزلًا وردي عليك بذلا» [٢].

الأثر التاسع عشر:

عن ابن السماك قال: «أوصاني أخي داود بوصيته، قال: انظر أن لا يراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك، واستح في قربه منك وقدرته عليك» [٣].

*****

(١) تهذيب الكمال (٢٠/ ٣٩٠).
(٢) حلية الأولياء (٣/ ٢٣٥).
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٣٥٨).

الفصل الثاني

ذكر بعض مظاهر عظمة الله عَزَّوَجَلَّ

ذكر بعض مظاهر عظمة الله عَزَّوَجَلَّ

إن ما سبق بيانه في الفصل السابق من الآيات والأحاديث في ذكر عظمة الله عَزَّوَجَلَّ تصلح أن يستشهد ببعضها في هذا الفصل، ومنعًا للتكرار أكتفي بذكر دلالات هذه الآيات والأحاديث على عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في ذاته وصفاته وأفعاله.

أولاً: عظمة الذات:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، يقول الشيخ السعدي عند هذه الآية: «أي ليس يشبهه تعالى، ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يقول السعدي عند هذه الآية: «أي لعظمته وجلاله وكماله لا تحيط به الأبصار ... (وهو يدرك الأبصار) أي هو

---

(١) تفسير السعدي (ص٧٥٤).

الـذي أحاط علمه بالظواهـر والبواطن، وسـمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره بجميع المبصرات صغارها وكبارها»(١).

ويقـول سـبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ويقـول تعـالى في آيـة الكـرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٥]، وقد مر بنا الحديث الذي رواه البخاري عند قوله تعـالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. وكذلك حديث: «**ما السـموات السـبع في الكـرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة...**» الحديث(٢).

ولا يخفـى مـا في هـذه الآيـات والأحاديـث مـن بيـان عظمـة ذاته عَزَّوَجَلَّ، التي لا تحيط بها العقول.

ثانيًا: عظمة الصفات:

وقـد مـر بنـا في الفصـل السـابـق ذكـر بعض هـذه الصفات، وما فيها من العظمة والسـعة والشمول والإحاطة، فهو سبحانه عظيم

---

(١) المصدر نفسه (ص٢٦٨).

(٢) سبق تخريجه.

وواسـع في رحمته وقدرته وقوته وجوده وكرمه وعفوه ومغفرته ولطفه وحكمته، وفي علمه وخبرته وسـمعه وبصره. ومظاهر العظمة في هذه الصفات لا تخفى على أدنى متأمل، وسبق ذكر الأدلة على ذلك. وسيأتي مزيد من أدلة الكتاب والسنة على ذلك قريبًا إن شاء الله تعالى:

ثالثًا: عظمة الأفعال:

فأفعالـه سـبحانه تتجلى فيهـا العظمة والشـمول، التي تدل على عظمة فاعلها سـبحانه، وتتجلى هذه الأفعال التي هي مقتضى أسـمائه وصفاته، وذلك في أمرين:

١) في خلقه سبحانه.

٢) وفي أمره.

وقبل التوسع في ذكر عظمة خلق الله سبحانه وعظمة أمره، الدالان على عظمته سبحانه، أسوق كلامًا نفيسًا للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوضح فيـه جانبًـا من مظاهـر عظمـة الله تعالى في صفاتـه سـبحانه وأفعاله. يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يدبر أمر الممالك، ويأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيـي، ويقضي وينفذ، ويعز ويذل، ويقلب الليـل والنهار، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الدول، فيذهب بدولة، ويأتي بأخرى.

والرسـل مـن الملائكة عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ بـين صاعد إليه بالأمـر، ونازل من عنده به، وأوامره ومراسـيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات، نافذة

بحسب إرادته ومشيئته، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ في السموات والأرض وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم وذراته، يقلبها ويصرفها، ويحدث فيها ما يشاء، وقد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووسع كل شيء رحمة وحكمة، ووسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ذوي الحاجات.

وأحاط بصره بجميع المرئيات، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى من السر؛ فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد، وخطر بقلبه، ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه: ما لم يخطر بقلبه بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا.

وله الخلق والأمر، وله الملك وله الحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، وله الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شيء؛ ووسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنبًا، ويفرج همًّا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويعلم جاهلًا، ويهدي ضالًّا، ويرشد حيرانًا، ويغيث لهفانًا، ويفك عانيًا، ويشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلًى، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبارًا، ويقيل عثرةً، ويستر عورةً، ويؤمن روعةً، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين.

لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

يمينه ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق، فإنه لم يغض ما في يمينه.

قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره، الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، يقبض سماواته كلها بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك، أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئًا، وأنا الذي أعيدها كما بدأتها. لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يسألها أن يعطيها.

لو أن أهل سماواته، وأهل أرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، كانوا على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا،

ولـو أن أول خلقه وآخرهم، وإنسـهم وجنهم، كانوا على أفجر قلب رجل منهم، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، ولو أن أهل سماواته، وأهل أرضه، وإنسهم وجنهم، وحيهم وميتهم، كانوا على أفجر قلب رجل منهـم، مـا نقص ذلك من ملكه شـيئًا، ولـو أن أهل سـماواته، وأهل أرضه، وإنسـهم وجنهم، وحيهم وميتهم، ورطبهم ويابسـهم، قاموا في صعيد واحد، فسـألوه فأعطى كلًّا منهم مسألته، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

ولـو أن أشـجار الأرض كلها - من حين وجـدت إلى أن تنقضي الدنيـا - أقـلام، والبحر - وراءه سـبعة أبحر تمده مـن بعده - مداد، فكتـب بتلك الأقلام، وذلـك المداد، لفنيت الأقـلام ونفد المداد، ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى.

وكيـف تفنى كلماتـه جل جلاله، وهـي لا بداية لهـا ولا نهاية؟! والمخلـوق لـه بداية ونهاية، فهـو أحق بالفنـاء والنفـاد، وكيف يُفنى المخلوقُ غيرَ المخلوق؟!

هو الأول الـذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

تبـارك وتعـالى، أحق من ذكـر، وأحق من عبـد، وأحق من حمد، وأولى مـن شـكر، وأنصر مـن ابتُغـي، وأرأف من ملـك، وأجود من سُئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قُصد، وأعدل من انتقم.

حكمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله، أو نعموا فبفضله، وهو الكريم الواسع

هو الملك الذي لا شريك له، والفرد فلا ند له، والغني فلا ظهير له، والصمد فلا ولد له، ولا صاحبة له، والعلي فلا شبيه له، ولا سمي له، كل شيء هالك إلا وجهه، وكل ملك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضل منقطع إلا فضله.

لن يُطاع إلا بفضله ورحمته، ولن يُعصى إلا بعلمه وحكمته، يُطاع فيشكر، ويعصى فيتجاوز ويغفر، كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، ونسخ الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، عطاؤه كلام، وعذابه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في سعة علمه وإحاطته:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ

(١) الوابل الصيب (ص٧٢).

مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، ويقول سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨-١٠]، ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢، ٣]، ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وفي قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الخضر، قال الخضر لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما رأيا عصفورًا ينقر في البحر بمنقاره نقرة: «ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر»(١).

---

(١) البخاري (٤٧٢٥).

صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في سمعه وبصره:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

ويقول سبحانه عن موسى وهارون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

ويقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٦١].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨].

ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤].

ويقول عَزَّوَجَلَّ عن نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

ويقول سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويقول تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦].

والآيات في ذكر سعة سمع الله وبصره وعظمتهما كثيرة جدًّا.

صور من عظمة الله تعالى في سعة جوده وكرمه وبره وإحسانه:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

ومر بنا الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»(١).

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٥).

صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض ومن فيهما:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الاحقاف: ٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

ويقول سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

ويقول سبحانه عن تحدي هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

والآيات في ذكر قدرته سبحانه وحكمته كثيرة جدًّا.

صور عظمته سبحانه في رحمته ورأفته وحلمه:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

ويقرب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا من صور رحمة الله عَزَّوَجَلَّ الواسعة العظيمة لأذهان الناس في الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذ وجدت صبيًّا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[(١)].

---

(١) البخاري (٢٧٥٣).

وكذلك الحديث الآخر الذي قال فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»**(١).

ويقول سبحانه عن سعة حلمه وصفحه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه وأمره وحكمته البالغة في ذلك:

إن المتأمل في خلقه سبحانه وأمره الشرعي والقدري، ليرى آثار أسماء الله الحسنى العظيمة متجلية في ذلك، فالخلق والأمر هما مقتضى أسمائه سبحانه الحسنى وصفاته العلا، وإن أبرز ما يظهر للمتأمل في هذا الكون وما قدره سبحانه فيه من الخلق والأمر أربع صفات عظيمة من صفاته سبحانه، تتضمن هذه الصفات الأربع بقية الصفات الحسنى، وهذه الصفات هي صفة العظمة، وصفة الرحمة، وصفة الحكمة، وصفة القدرة. فعظمة هذا الخلق تدل على عظمة خالقه سبحانه. وما يظهر فيه من الرحمة واللطف والنعم العظيمة والمخلوقات المسخرة لبني آدم. تدل على رحمته سبحانه الواسعة،

(١) مسلم (٢٧٥٢).

وما يتجلى من الحكم البالغة والنظام الدقيق تدل على حكمته سبحانه الواسعة البالغة، وما فيه من قوة ومتانة وتماسك وتنظيم بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وقوته تدل على القدرة العظيمة التي خلق الله عَزَّوَجَلَّ بها هذا الخلق، ودبر فيه الأمر. قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فعظمة الله عَزَّوَجَلَّ تتجلى في أمرين عظيمين: (في خلقه وفي أمره).

أولهما: عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه المتجلية في الآفاق والأنفس:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠- ٢١].

وإن عظمة المخلوقات ودقة نظامها تدل على عظمة خالقها سبحانه، وحكمته البالغة في خلقها.

صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلق هذا الكون العظيم:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ويقـول سـبحانه حاثًّـا لعباده عـلى النظر والتفكـر في عظمة هذا الكـون: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقول عَزَّوَجَلَّ مادحًا عباده الذين يتفكرون في عظمة هذا الكون، ومـا يثمر في نفوسـهم مـن ذكـر لله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه وتنزيه له سـبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وأسـوق فيما يـلي تفصيلًا لبعض هذه الآيـات الباهرات في خلق السـموات والأرض ومـا بينهـما، التـي تتجـلى فيهـا عظمـة خالقهـا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلـك كـما يصورهـا الإمـام ابـن القيـم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه النفيـس (مفتاح دار السـعادة)، حيـث يقول: «فتأمل خلق السـماء، وارجـع البصر فيهـا كرة بعد كـرة، كيف تراها من أعظـم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها، بحيث لا تصعد علوًّا كالنار، ولا تهبط نازلة كالأجسـام الثقيلة، ولا عمد تحتهـا، ولا علاقة فوقها، بل هي ممسـوكة بقدرة الله، الذي يمسـك السموات والأرض أن تزولا، ثم تأمل اسـتواءها واعتدالها، فلا صدع فيها، ولا فطر، ولا شق، ولا

أمت، ولا عوج. ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون، الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له، حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة، وما قرب منها إلى السواد. وقال الأطباء: إن من كلَّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه، ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له، هذا بعض فوائد هذا اللون، والحكمة فيه أضعاف ذلك.

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما، لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معايشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور، ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع فرط الحاجة إلى السبات، وجموم الحواس، وانبعاث القوى الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام، وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها، حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتًا بمنزلة السراج، يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك، ليقروا ويهدؤوا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا، مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما

تمام مصالح العالم، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى، ونبه عباده عليه بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع، لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار، لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات. وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر. والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، فذكر تعالى خلق الليل والنهار، وإنهما خلفة أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما، وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار، كون كل واحد منهما يخلف الآخر، لا يجامعه ولا يحاذيه، بل يغشى أحدهما صاحبه، فيطلبه حثيثًا يزيله عن

سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه، فيطلبه حثيثًا حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائمًا يتطالبان، ولا يدرك أحدهما صاحبه»(١).

وقال أيضًا: «ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض، حتى إن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء، ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته، وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها، هذا طبع الماء، وهذا حير عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه، وأن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية، التي اقتضت ذلك العيش الحيواني الأرضي في الأرض، وهذا حق، ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله، ولا محيص عنه. وفي مسند الإمام أحمد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**»(٢) وهذا أحد الأقوال في قوله عَزَّ وَجَلَّ: (والبحر المسجور): إنه المحبوس. حكاه ابن عطية وغيره، قالوا: ومنه

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) مسند أحمد (٣٠٣)، ولفظه: «**ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض، يستأذن الله في أن ينتضح عليهم، فيكفه الله عَزَّ وَجَلَّ**».

ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض، فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض، ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الرياح، التي يسخرها الله لإجرائها، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣] وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤]، فما أعظمها من آية، وأبينها من دلالة، ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرًا، وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]»(١) .

إلى أن قال: «ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها، وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بالذي نصب الجبال، وأودع فيها المنافع، آلله أمرك

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٤، ٢٠٥).

بكـذا وكـذا؟ قال «**اللهـم نعم**» فمـن منافعها أن الثلج يسـقط عليها فيبقـى في قللهـا حاصلًا لشراب النـاس إلى حين نفـاده، وجعل فيها ليذوب أولًا فأول، فتجيء منه السـيول الغزيرة، وتسـيل منه الأنهار والأدوية، فينبت في المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والأودية التي لا يكون مثلها في السـهل والرمل، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض، فانحل جملة وساح دفعة، فعدم وقت الحاجة إليه، وكان في انحلاله جملة السـيول، التي تهلك ما مرت عليه، فيضر بالناس ضررًا لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته، ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل، التي هي بمنزلة الحصـون والقلاع، وهي أيضًا أكنان للنـاس والحيوان، ومن منافعها مـا ينحت مـن أحجارهـا للأبنية عـلى اختـلاف أصنافهـا والأرحية وغيرها، ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها مـن الذهـب والفضـة والنحـاس والحديـد والرصـاص والزبرجـد والزمـرد، وأضعاف ذلك مـن أنواع المعادن، الـذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل، حتى إن فيها ما يكون الشيء اليسـير منه تزيد قيمتـه ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سـبحانه، ومن منافعها أيضًا أنها ترد الريـاح العاصفـة وتكـسر حدتها، فلا تدعهـا تصدم ما تحتهـا، ولهذا فالسـاكنون تحتهـا في أمان مـن الرياح العظـام المؤذية، ومـن منافعها

أيضًا أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها، فتصرفها عنهم ذات اليمن وذات الشمال، ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن، ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق، ولهذا سماها الله أعلامًا، فقال ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]، فالجواري: هي السفن، والأعلام: الجبال»(١).

وتحدث في موطن آخر عن عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وحكمته في خلق الرياح بأنواعها وتصريفها والسحاب المسخر بين السماء والأرض، فيقول: «ومن آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، يدرك بحس اللمس عند هبوبه. يدرك جسمه ولا يرى شخصه، فهو يجري بين السماء والأرض، والطير مختلفة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه، كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه، كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وتسمى رياح الرحمة: المبشرات، والنشر، والذاريات، والمرسلات، والرخاء، واللواقح. ورياح العذاب: العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر، وهما في

(١) المصدر نفسه (ص٢١٨-٢١٩).

البر، وإن شاء حركه بحركة العذاب، فجعله عقيمًا، وأودعه عذابًا أليما، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه، وهي مختلفة في مهابها، فمنها صبا، ودبور، وجنوب، وشمال. وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تشده وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه، ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها، فريح تثير السحاب، وريح تلقحه، وريح تحمله على متونها، وريح تغذي النبات، ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها، جعل لكل ريح ريحًا مقابلتها، تكسر سورتها وحدتها، ويبقى لينها ورحمتها، فرياح الرحمة متعددة. وأما ريح العذاب، فإنه ريح واحدة، ترسل من وجه واحد، لإهلاك ما ترسل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها... ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف -الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه- من الشدة والقوة والبأس ما يقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة، ويزعجها عن أماكنها ويفتتها، ويحملها على متنه، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلا وامتلأ به، ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره، وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق، ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه، فامتنع هذا اللطيف

من قهر الماء له، ولم يمتنع منه القوي الشديد، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء، فإنه لا يرسب فيه، لأن الهواء يمتنع من الغموس في الماء، فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة، فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به، حتى أمن من الغرق، وهذا كالذي يهوي في قليب، فيتعلق بذيل رجل قوي شديد، يمتنع عن السقوط في القليب، فينجو بتعلقه به، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد.

ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض، كيف ينشئه سبحانه بالرياح، فتثيره كسفًا ثم يؤلف بينه، ويضم بعضه إلى بعض، ثم تلقحه الريح، وهي التي سماها سبحانه لواقح، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها أهراق ماءه عليها، فيرسل سبحانه عليه الريح، وهو في الجو فتذروه وتفرقه، لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته، حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها، فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح، وفي الترمذي وغيره: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى السحاب، قال: «**هذه روايا الأرض، يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه**»، فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم، التي عليها ميرتهم، وكان

الحسن إذا رأى السحاب، قال: في هذا والله رزقكم، ولكنكم تحرموه بخطاياكم وذنوبكم. وفي الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«بينما رجل بفلاة من الأرض، إذ سمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان. فمر الرجل مع السحابة، حتى أتت على حديقة، فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها، فإذا برجل معه مسحاة يسحي الماء بها، فقال: ما اسمك يا عبدالله؟ قال: فلان. للاسم الذي سمعه في السحابة»**(١)، وبالجملة فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء، وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض، إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء، فيرسله وينزله منه مقطعًا بالقطرات، كل قطرة بقدر مخصوص، اقتضته حكمته ورحمته، فيرش السحاب الماء على الأرض رشًّا، ويرسله قطرات مفصلة، لا تختلط قطرة منها بأخرى، ولا يتقدم متأخرها، ولا يتأخر متقدمها، ولا تدرك القطرة صاحبتها، فتمزج بها، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها، لا تعدل عنه، حتى تصيب الأرض قطرة قطرة، قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة، أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه، فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقًا

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٤).

للعباد والدواب والطير والذر والنمل يسوقه رزقًا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني، فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش، في وقت كذا وكذا، ثم كيف أودعه في الأرض، ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات، فهذا النبات يغذي، وهذا يصلح الغذاء، وهذا ينفذه، وهذا يضعف، وهذا سم قاتل، وهذا شفاء من السم، وهذا يمرض، وهذا دواء من المرض»(١).

وهذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض، وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، وما في الأرض من الجبال والشجر والنبات والدواب، كلها مسبحة لله عَزَّوَجَلَّ، خاضعة له ساجدة معظمة له، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

ب) صور من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وإتقانه في خلق الإنسان:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾[الروم: ٨]، وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الآية [فصلت: ٥٣]،

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠١، ٢٠٢).

وعن خلق الإنسان وما فيه من العجائب والحكم البالغة، التي تدل على عظمة خالقه، يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة، وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت، كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب، منقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها، إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع، الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد، جعل لهما قرارًا مكينًا، لا يناله هواء يفسده، ولا برد يجمده، ولا عارض يصل إليه، ولا آفة تتسلط عليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعله عظامًا مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها، وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك، ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده، وأبعده عن الانحلال، وكيف كساها

لحمًا ركبه عليها، وجعله وعاء لها وغشاء وحافظًا، وجعلها حاملة له مقيمة له، فاللحم قائم بها، وهي محفوظة به، وكيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ، ومد اليدين والرجلين وبسطهما، وقسم رؤوسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه، ثم انظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قوامًا للبدن وعمادًا له، وكيف قدرها ربه وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحني والمستدير، والدقيق والعريض، والمصمت والمجوف، وكيف ركب بعضها في بعض، فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى، ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط، وكيف اختلف أشكالها باختلاف منافعها: كالأضراس، فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة، ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة، ولما كان الإنسان محتاجًا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظمًا واحدًا بل عظامًا متعددة، وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه، وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء، وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات، أنبتها من أحد طرفي العظم، وألصق

أحـد طـرفي العظـم بالطرف الآخـر: كالرباط لـه، ثم جعـل في أحد طـرفي العظم زوائد خارجـة عنه، وفي الآخر نقرًا غائصـة فيه موافقة لشـكل تلـك الزوائـد، ليدخل فيهـا وينطبق عليهـا، فـإذا أراد العبد أن يحـرك جـزءًا من بدنـه لم يمتنع عليـه، ولولا المفاصـل لتعذر ذلك عليـه، وتأمل كيفية خلق الرأس، وكثرة ما فيه من العظام، حتى قيل: إنها خمسـة وخمسـون عظمًا مختلفة الأشـكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على البدن، وجعله عاليًا علو الراكب على مركوبه، ولما كان عاليًا على ا لبدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الأدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وجعل حاسة البصر في مقدمه، ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن، وركب كل عين من سـبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصـوص، ومقدار مخصوص، ومنفعة مخصوصة، لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع، أو زالت عن هيئتها وموضعها، لتعطلت العين عن الإبصار، ثم أركز سـبحانه داخـل تلـك الطبقات السـبع خلقًا عجيبًـا، وهو إنسـان العين بقدر العدسة، يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء»[(١)].

... إلى آخر ما ذكره من العجائب في خلق الإنسـان من الأجهزة والوظائف المختلفة.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٨، ١٨٩).

ويتحدث سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عجائب خلق الإنسان، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ فيقول: «وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الإيمان، وحين يحرم نعمة اليقين، إنه عجيبة في تكوينه الجسماني، في أسرار هذا الجسد. عجيبة في تكوينه الروحي، في أسرار هذه النفس، وهو عجيبة في ظاهره، وعجيبة في باطنه، وهو يمثل عناصر هذا الكون، وأسراره وخفاياه.

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير، تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، دورة الدم في القلب والعروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها، وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب.

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة، إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها، هذه المعلومات والصور المختزنة،

أين؟ وكيف؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت؟ وأين؟ وكيف تُستدعى فتجيء، وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى، فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر، تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشرافات تدل على ما وراء الظاهر من المغيب المجهول.

ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه، خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين، فأين تكمن هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة؟ وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل، فتمثله أدق تمثيل، وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب؟

وإن وقفة أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض، وهو ينفصل عن أمه ويعتمد على نفسه، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة، إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة، لتدهش العقول وتحير الألباب، وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان، لا يقف له قلب، ولا يتماسك له وجدان.

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات، بل أمام النطق ذاته، نطق هذا اللسان، وتصويت تلك الحنجرة، إنها عجيبة عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيرًا، ولكن الوقوف أمامها لحظة في

تدبر يجدد وقعها، إنها خارقة، خارقة مذهلة، تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله، وكل جزئية في حياة هذا المخلوق توقفنا أمام خارقة من الخوارق، لا ينقضي منها العجب ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده، ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله، في صورة خاصة لا تتكرر أبدًا على مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعًا، لا في شكله وملامحه، ولا في عقله ومداركه، ولا في روحه ومشاعره، ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره، ففي هذا المتحف الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين، كل فرد نموذج خاص، وطبعة فريدة لا تتكرر، يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر، كما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع العصور.

وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة للبصر، تراه العيون ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون.

وهذه العجائب لا يحصرها كتاب، فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات، والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم، والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها، ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهي المعروض للأبصار والبصائر، وليقضي رحلته

على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبر، وفي متاع رفيع يتأمل هذا الخلق العجيب، الكامن في ذات نفسه، وهو عنه غافل مشغول»(١).

ثانيهما: عظمة الله عَزَّوَجَلَّ المتجلية في أمره سبحانه:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٧٩، ٣٣٨٠).

يقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية، مبينًا معنى قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وعلاقته بما قبله: «هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق ويغني ويفقر، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها، التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره، وينزل الكتب الإلهية على رسله، وبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل، ببيانها وإيضاحها وتمييزها»(١).

ويقول عند آية السجدة: «﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي الأمر القدري والأمر الشرعي»(٢).

إذن (فالأمر) المذكور في هذه الآيات، وأنه لله وحده يدبره ويصرفه، كما يشاء، هما أمره القدري الكوني، وأمره الديني الشرعي.

وكلا الأمرين فيهما من مظاهر العظمة والجلال والحكمة ما يبهر العقول، ويدل على عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وجلاله المتفرد بتصريف الأمور بعلمه وحكمته وعزته ورحمته وقدرته.

---

(١) تفسير السعدي (ص٤١٢).
(٢) تفسير السعدي (ص٦٥٣).

يتحدث الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الحكمة من الأمر والخلق، فيقول: «فانظر حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرعه تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة، التي لا يختل نظامها، ولا ينخرم أبدًا، ولا يختل أصلًا، ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق، وهؤلاء خواص العباد، الذين عقلوا عن الله أمره ودينه، وعرفوا حكمته فيما أحكمه، وشهدت فطرهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم، وهم في ذلك درجات لا يحصيها إلا الله، ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر، وهم أكثر الأطباء، الذين صرفوا أفكارهم إلى استخراج منافع النبات والحيوان، وقواها وما تصلح له مفردة ومركبة، وليس لهم نصيب في حكمة الأمر، إلا كما للفقهاء من حكمة الخلق، بل أقل من ذلك، ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق والأمر، بحسب استعداده وقوته، فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا، فإذا نظر إلى خلقه وما فيه من الحكم ازداد إيمانًا ومعرفة وتصديقًا بما جاءت به الرسل.

وإذا نظر إلى أمره وما تضمنه من الحكم الباهرة ازداد إيمانًا ويقينًا وتسليمًا، لا كمن حجب بالصنعة عن الصانع، وبالكواكب عن مكوكبها، فعمى بصره، وغلظ عن الله حجابه، ولو أعطى علمه

حقه لكان من أقوى الناس إيمانًا، لأنه اطلع من حكمة الله وباهر آياته وعجائب صنعته الدالة عليه، وعلى علمه وقدرته وحكمته، على ما خفي عن غيره، ولكن من حكمة الله أيضًا أن سلب كثيرًا من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته، وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، لدناءتها وخستها وحقارتها وعدم أهليتها لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته، وأسرار دينه وشرعه، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ما له نسبة إلى الخافي عنهم منه أبدًا، بل علم الأولين والآخرين منه كنقرة العصفور من البحر»(١).

ويتحدث سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ عن أمر الله الكوني القدري عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فيقول: «كل شيء، كل صغير، وكل كبير، كل ناطق وصامت، كل متحرك، وكل ساكن، كل ماض وكل حاضر، كل معلوم وكل مجهول... كل شيء خلقناه بقدر، قدر يحدد حقيقته، ويحدد صفته، ويحدد مقداره، ويحدد زمانه، ويحدد مكانه، ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء»(٢).

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها، كل حركة في التاريخ ككل

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٣٥، ٢٣٦).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣).

انفعال في نفس فرد، ككل نفس يخرج من صدر، إن هذا النفس مقدر في وقته، مقدر في مكانه، مقدر في ظروفه كلها، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون، محسوب حسابه في التناسق الكوني، كالأحداث العظام الضخام.

وهذا العود البري النابت وحده هناك في الصحراء، إنه هو الآخر قائم هناك بقدر، وهو يؤدي وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان، وهذه النملة السارية، وهذه الهباءة الطائرة، وهذه الخلية السابحة في الماء، كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء.

تقدير في الزمان، تقدير في المكان، تقدير في المقدار، وتقدير في الصورة، وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال...

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد، لكل حادث، ولكل نشأة، ولكل مصير، ووراء كل نقطة، وكل خطوة، وكل تبديل أو تغيير.

إنه قدر الله النافذ، الشامل، الدقيق، العميق.

وأحيانًا يرى البشر طرف الخيط القريب، ولا يرون طرفه البعيد، وأحيانًا يتطاول الزمن بين المبدأ والمصير في عمرهم القصير، فتخفى عليهم حكمة التدبير، فيستعجلون ويقترحون، وقد يسخطون، أو يتطاولون، والله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر، ليسلموا الأمر لصاحب الأمر، وتطمئن قلوبهم وتستريح، ويسيروا مع قدر

الله في توافـق وفي تناسـق، وفي أنس بصحبة القـدر في خطوه المطمئن الثابـت الوثيـق ومـع التقديـر والتدبـير، القـدرة عـلى تفعيـل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ فهي إشارة واحدة، أو كلمة واحدة، يتم بها كل أمر، الجليل والصغير سـواء، وليس هنالك جليل ولا صغير، إنما ذلك تقدير البشر للأشـياء، وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر، إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر، فالزمن إن هو إلا تصور بشري ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة، ولا وجود له في حساب الله المطلق، من هذه التصورات المحدودة، واحدة تنشئ هـذا الوجود الهائل، وواحدة تبدل فيـه وتغير، وواحدة تذهب به كما يشـاء الله، وواحـدة تحيـي كل حي، وواحـدة تذهب به هنـا وهناك، وواحدة ترده إلى الموت، وواحدة تبعثه في صورة من الصور، وواحدة تبعث الخلائق جميعًا، وواحدة تجمعهم ليوم الحشر والحساب»[(١)].

هـذا عن أمره الكوني القدري وما فيه من العلم الواسـع العظيم والحكمة العظيمة، والقدرة والقوة والرحمة الواسعة العظيمة.

أمـا ظهور العظمـة والجلال في أمره الشرعـي الديني، فهذا جلي لأهـل البصائـر وأولي الألباب، فما أعظم وأنفع مـا تضمنته أوامر الله

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٤٤١)، باختصار.

ونواهيه، وأحكامه الشرعية، من مصالح عظمى، تدرك العقول بعضها، ويخفى عليها بعضها، كاملة شاملة متوازنة مبرأة من الجهل والظلم والهوى والقصور، وما أحسن ما قاله الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يصف حسن هذه الشريعة وكمالها وعظمة نفعها للعباد في الدنيا والآخرة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم، والملة الحنيفية، والشريعة المحمدية، التي لا تنال العبارة كمالها، ولا يدرك الوصف حسنها، ولا تقترح عقول العقلاء- ولو اجتمعت، وكانت على أكمل عقل رجل منهم- فوقها، وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسنها، وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له، والدعوى والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهانًا وآية وشاهدًا على أنها من عند الله، وكلها شاهدة له بكمال العلم، وكمال الحكمة، وسعة الرحمة والبر والإحسان، والإحاطة بالغيب والشهادة، والعلم بالمبادئ والعواقب، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها، وجعلهم من أهلها، وممن ارتضاها لهم وارتضاهم لها، فلهذا امتن على عباده بأن هداهم لها؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن

كَانُوا۟ مِن قَبۡلُ لَفِی ضَلَـٰلࣲ مُّبِینٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال معرفًا لعباده، ومذكرًا لهم عظيم نعمته عليهم، مستدعيًا منهم شكرهم على أن جعلهم من أهلها: ﴿ٱلۡیَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِینَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَیۡكُمۡ نِعۡمَتِی وَرَضِیتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَـٰمَ دِینࣰاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذانًا في الدين بأنه لا نقص ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته، ووصف النعمة بالتمام إيذانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يُتمها لهم بالدوام في هذه الديار، وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم، إذ هم القائمون به المقيمون له، وإضافة النعمة إليه، إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقًّا وهم قابلوها...

وقد ذكرنا فصلًا مختصرًا في دلالة خلقه على وحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، وأسمائه الحسنى، وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب، ثم رأينا أن نتبعه فصلًا في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه، وحكمته ورحمته، وسائر صفات كماله، إذ هذا من أشرف العلوم التي يكتسبها العبد في هذه الدار يدخل بها إلى الدار الآخرة.

وقد كان الأولى بنا الإمساك عن ذلك؛ لأن ما يصفه الواصفون منه، وتنتهي إليه علومهم هو كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها! فهو يصف البحر بما يعلق على إصبعه من البلل، وأين ذلك من البحر؟! فيظن السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر، وإنما هي صفة ما علق على الإصبع منه، وإلا فالأمر أجل وأعظم وأوسع من أن تُحيط عقول البشر بأدنى جزء منه.

وماذا عسى أن يصف به الناظر إلى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها، ولكن قد رضي الله من عباده بالثناء عليه، وذكر آلائه، وأسمائه وصفاته، وحكمته وجلاله، مع أنه لا يحصي ثناء عليه أبدًا، بل هو كما أثنى على نفسه، فلا يبلغ مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى، ولا وصف كتابه ودينه بما ينبغي له، بل لا يبلغ أحد من الأمة ثناء على رسوله كما هو أهل أن يُثنى عليه، بل هو فوق ما يثنون به عليه، ومع هذا فإن الله تعالى يحب أن يحمد ويثنى عليه، وعلى كتابه ودينه ورسوله.

فهذه مقدمة اعتذار بين يدي القصور من راكب هذا البحر الأعظم، والله عليم بمقاصد العباد ونياتهم، وهو أولى بالعذر والتجاوز»[١].

*****

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠١-٣٠٣).

الفصل الثالث

ذكر بعض مظاهر التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ وعلاماته

ذكر بعض مظاهر التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ وعلاماته

إن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ليس كلمة تقال باللسان، وادعاء يدعيه الإنسان، ولكنه عمل قلبي شريف، إذا تمكن في القلب وامتلأ به ظهرت آثاره وعلاماته على حال الإنسان وأقواله وأعماله ومواقفه، فتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ له لوازمه ومقتضياته، وسنقف في هذا الفصل إن شاء الله تعالى مع بعض هذه المظاهر واللوازم، التي تدل على تعظيم صاحبها لله تعالى، وبفقدها أو ظهور ما يضادها يكون التعظيم في القلب ضعيفًا أو معدومًا.

المظهر الأول من علامات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ:

توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته وحده لا شريك له، والخلوص من جميع أنواع الشرك صغيره وكبيره. فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه التعظيم الذي يليق به سبحانه من أشرك مع الله أحدًا من خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٧].

وسبق ذكر قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يحاج قومه، ليتركوا الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب، وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج، بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم بالغني، بالذات القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته، فأي ظلم أقبح من هذا، وأي حكم أشد جورًا منه»(١).

ومن تلاعب الشيطان بالمشركين: أن صور لهم عملهم وإشراكهم بالله عَزَّوَجَلَّ بأنه تعظيم لله تعالى، وطلب القرب منه، حيث زعموا أن صرف بعض أنواع العبادة لغير الله عَزَّوَجَلَّ من أحجار وأشجار أو كواكب أو أشخاص أو ملائكة، إنما أرادوا أن يشفعوا لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ، ويقربونهم إليه، لأنهم يرون أنفسهم أقل وأحقر من أن يدخلوا على الله العظيم دون واسطة، قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، ومثل ذلك من يعبد الشمس والقمر، بحجة أن هذه الأجرام أقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منهم.

---

(١) الجواب الكافي (ص٩٢).

ومن توحيد الله عَزَّوَجَلَّ توحيده في أسمائه سبحانه وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبته الله عَزَّوَجَلَّ لنفسه، أو أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات، من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تكييف، فلا قدر الله عَزَّوَجَلَّ، ولا عظمه من عطل صفات الله عَزَّوَجَلَّ، أو أولها أو كيفها أو شبهها بصفات المخلوقين، قال الله عَزَّوَجَلَّ في الرد على نفاة الصفات وعلى المشبهة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فأول الآية رد على الممثلة المشبهة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وآخرها رد على النفاة والمعطلة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، رد على المؤولة المكيفة وعلى المشبهة، وهذا هو الهدى الذي هدى الله عَزَّوَجَلَّ أهل السنة والجماعة إليه، فهم يثبتون له سبحانه ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، مع تنزيهه سبحانه من أن يشابهه أحد من خلقه فيها، مع قطع الطمع من إدراك الكيفية، وهذا هو منهج المعظمين لله عَزَّوَجَلَّ، الموحدين له سبحانه التوحيد الذي يحبه ويرضاه.

ومن تلاعب الشيطان بهؤلاء النفاة المعطلة: أنه أغراهم بهذا السبيل تعظيمًا لله وتنزيها، فقالوا: إنا إذا أثبتنا له الصفات التي هي من صفات المخلوقين شبهناه بهم، والله منزه عن ذلك. ويمكن أن يقال في الرد على هذه الشبهة: «إن تسبيح الله وتنزيهه وتقديسه وتعظيمه يجب أن يكون وفق الضوابط الشرعية، وعلى ضوء الأدلة النقلية، ولا

يجوز بحال أن يُبنى ذلك على الأهواء المجردة، أو الظنون الفاسدة، أو الأقيسة العقلية الكاسدة، كما هو الشأن عند أرباب البدع المعطلين لصفات الرب سبحانه، ومن كان يعتمد في باب التعظيم على هواه بغير هدى من الله، فإنه يزل في هذا الباب، ويقع في أنواع من الباطل وصنوف من الضلال، جاء عن عبدالرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد ذُكر عنده أن الجهمية ينفون أحاديث الصفات، ويقولون: الله أعظم من أن يوصف بشيء من هذا، أنه قال: «قد هلك قوم من وجه التعظيم، فقالوا: الله أعظم من أن ينزل كتابًا أو يرسل رسولًا، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ ثم قال: هل هلكت المجوس إلا من جهة التعظيم؟ قالوا: الله أعظم من أن نعبده، ولكن نعبد من هو أقرب إليه منا، فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]» (١).

وفي الرد على المشركين ونفاة الصفات وعلى القدرية والجبرية الذين انحرفوا في باب القدر وعلى الرافضة المشركين، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ إلى قوله ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فما قدر الله

---

(١) انظر: مجلة الجامعة الإسلامية (٤٣/ ٢٣٦).

حـق قدره مـن عبد معه غيره مـن لا يقدر على خلـق أضعف حيوان وأصغر، وإن يسـلبهم الذباب شـيئًا مما عليه لم يقدروا على الاستعادة منـه، قـال تعـالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآيـة، فما قدر من هذا شـأنه وعظمتـه حق قدره من أشرك معـه في عبادتـه من ليـس له شيء من ذلـك البتة، بل هـو أعجز شيء وأضعفـه، فما قدر القـوي العزيز حق قدره مـن أشرك معه الضعيف الذليـل، وكـذا مـا قـدره حق قدره مـن نفى حقائق أسـمائه الحسـنى وصفاتـه العلا، فنفى سـمعه وبـصره وإرادته واختيـاره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عبـاده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشـيئته، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشـاء، ويشاء ما لا يكون، فتعالى عن قول أشباه المجـوس علـوًّا كبـيرًا، وما قـدر الله حق قـدره من نفـى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته... »(١).

المظهر الثاني: إحسان الظن بالله عَزَّوَجَلَّ

إن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله وتقديره حق قدره إحسان الظن به سـبحانه في جميع أفعاله، وتنزيهه سبحانه من أن يكون في شيء منها

(١) الجواب الكافي (ص٩٦، ٩٧).

نقص أو جهل أو ظلم أو عبث، وإنما هي في غاية الكمال والجمال والحكمة والعدل والفضل والإحسان، وما قدر الله عَزَّوَجَلَّ حق قدره، وما عظمه التعظيم الذي ينبغي له من أساء الظن به سبحانه، وظن في أفعاله من الخلق والأمر ظن السوء، وكل ظن لا يليق بحمده وحكمته ورحمته وعلمه وعدله، فهو ظن سوء بالله عَزَّوَجَلَّ، وقدح في أسمائه الحسنى، وقد فضح الله أقوامًا من المشركين والمنافقين، ووصفهم بقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على هذه الآية صورًا متعددة من صور إساءة الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، التي تتنافى مع تعظيمه وإجلاله، أسوقها بشيء من الاختصار، كي نحاسب أنفسنا في التخلص منها إن وجدت، ونحذر منها ونحذر المسلمين من الوقوع فيها، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، وجنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده، ويؤيد حزبه، ويُعليهم، ويظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا، لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظن بالله ظن السوء؛ ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة، والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله[1].

وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته[2].

وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة -يستحق الحمد عليها- وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة، عن حكمة وغاية مطلوبة، هي أحب إليه من فوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يُحب، وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى، ولا

---

(١) يعني بذلك المنافقين المرجفين.

(٢) يعني بهم المعتزلة القدرية.

أنشـأها عبثًـا، ولا خلقهـا باطـلًا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧][1].

وأكثـر الناس يظنـون بالله غير الحق ظن السـوء فيـما يختص بهم وفيـما يفعلـه بغيرهـم، ولا سـلم من ذلـك إلا من عـرف الله، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه، فقد ظن به ظن السوء.

ومـن جوز عليـه أن يعذب أوليـاءه مع إحسـانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه، فقد ظن به ظن السوء[2].

ومن ظن به أن يترك خلقه سُدى، معطلين عن الأمر والنهي، ولا يُرسـل إليهم رسله، ولا ينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام، فقد ظن به ظن السوء.

ومـن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسـله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.

ومـن ظن أنـه يضيـع عليه عملـه الصالح الـذي عملـه خالصًا لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويُبطله عليه بلا سـبب من العبد، أو

---

(١) يعني بهم نفاة الحكمة والتعليل من الأشاعرة.
(٢) يعني بهم نفاة الحكمة والتعليل من الأشاعرة وأهل الكلام.

أنـه يُعاقبـه بما لا صُنع لـه فيه، ولا اختيار له، ولا قـدرة، ولا إرادة في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به.

أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات، التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده.

وأنه يحسـن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلـده في الجحيـم أسـفل السـافلين، ويُنعـم مـن اسـتنفد عمره في عداوته، وعداوة رسـله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسـن سـواء، ولا يعـرف امتناع أحدهما ووقـوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر، فقد ظن به ظن السوء[1].

ومـن ظـن بـه أنه أخـبر عـن نفسـه وصفاتـه وأفعاله بـما ظاهره باطـل، وتشـبيه، وتمثيل. وترك الحـق لم يُخبر به، وإنما رمـز إليه رموزًا بعيدة، وأشـار إليه إشـارات مُلغزة لم يصرح به، وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيـل والباطـل، وأراد مـن خلقـه أن يُتعبوا أذهانهـم، وقواهم، وأفكارهـم في تحريـف كلامه عن مواضعه، وتأويلـه على غير تأويله، ويتطلبـوا لـه وجوه الاحتـمالات المسـتكرهة، والتأويـلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشـبه منها بالكشـف والبيان، وأحالهم في معرفة

(١) يعني بهم الأشاعرة الذين ينفون معرفة العقل بالحسن والقبيح.

أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم ألا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان، وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يُوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء، وظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهوكين الحيارى، هو الهدى والحق، وهذا من أسوأ الظن بالله، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية[1].

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه كان معطلًا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا، فقد ظن به ظن السوء.

---

(١) يعني بهم المعطلة نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والأشاعرة.

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السماوات والأرض، ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء(١).

ومن ظن أنه لا سمع له، ولا بصر، ولا علم له، ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم يُكلم أحدًا من الخلق، ولا يتكلم أبدًا، ولا قال ولا يقول، ولا له أمرٌ ولا نهي يقوم به، فقد ظن به ظن السوء(٢).

ومن ظن أنه ليس فوق سماواته على عرشه بائنًا من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفل، كما أنه أعلى، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه(٣).

ومن ظن به أنه يحب الكفر، والفسوق، والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح، فقد ظن به ظن السوء(٤).

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد،

---

(١) يعني بهم زنادقة الفلاسفة وأتباع أرسطو وأفلاطون.
(٢) يعني بهم المعطلة نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والأشاعرة.
(٣) يعني بهم المعطلة نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والأشاعرة.
(٤) يعني بهم الجبرية الذين لا يفرقون بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء(١).

ومن ظن أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يُحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الأبدين بتلك الكبيرة، ويُحبط بها جميع طاعاته ويُخلده في العذاب، كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه، فقد ظن به ظن السوء(٢).

وبالجملة، فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رُسله، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أن له ولدًا، أو شريكًا أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم، فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

---

(١) يعني بهم المعطلة نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة والأشاعرة.
(٢) يعني بهم الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة، ويحكمون عليه بالخلود في النار إن لم يتب.

ومـن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقـرب إليـه، فقد ظن به خـلاف حكمته وخلاف موجب أسـمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومـن ظن به أنه إذا ترك لأجله شـيئًا لم يعوضـه خيرًا منه، أو من فعل لأجله شيئًا لم يُعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومـن ظن به أنه يغضب عـلى عبده، ويُعاقبه ويحرمـه بغير جُرم، ولا سـبب من العبد إلا بمجرد المشـيئة، ومحـض الإرادة، فقد ظن به ظن السوء.

ومـن ظـن بـه أنـه إذا صدقـه في الرغبـة والرهبة، وتـضرع إليه، وسـأله، واسـتعان به، وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يُعطيه ما سـأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به أنه يثيبه إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه، وسـأله ذلك في دعائـه فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومـن ظن بـه أنه إذا أغضبه، وأسـخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخـذ مـن دونه وليًّا، ودعا مـن دونه ملكًا أو بشرًا حيًّـا أو ميتًا، يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السـوء، وذلك زيادة في بعده من الله، وفي عذابه.

ومـن ظن بـه أنه يسـلط على رسـوله محمـد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعداءه تسـليطًا مسـتقرًّا دائمًا في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يُفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصية، وظلموا أهل بيته، وسلبوهم حقهم، وأذلوهم، وكانت العزة، والغلبة، والقهر لأعدائه وأعدائهم دائمًا من غـير جـرم ولا ذنـب لأوليائـه، وأهل الحـق، وهو يـرى قهرهم لهم، وغصبهـم إياهـم حقهم، وتبديلهم دين نبيهـم، وهو يقدر على نصرة أوليائه وحزبه وجنـده، ولا ينصرهم ولا يُديلهم، بل يديل أعداءهم عليهـم أبدًا، أو أنه لا يقدر على ذلـك، بل حصل هذا بغير قُدرته ولا مشـيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تُسلم أمته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضة، فقد ظن به أقبح الظن وأسـوأه، سـواء قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم، ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنـه غير قادر على ذلك، فهم قادحون في قدرته، أو في حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به، ولا ريب أن (الرب) الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك، لكن رفوا هذا الظن الفاسـد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرمضاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة الله، ولا له قدرة على دفعه ونـصر أوليائـه، فإنه لا يقدر عـلى أفعال عباده، ولا هـي داخلة تحت قدرتـه، فظنوا به ظن إخوانهم المجـوس والثنوية بربهم، وكل مبطل، وكافـر، ومبتدع مقهور مسـتذل، فهو يظن بربه هـذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر، والعلو من خصومه.

فأكثر الخلق، بل كلهم -إلا من شاء الله- يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامنا كُمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت يُنبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته، لرأيت عنده تعتبًا على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ماجرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

فإن تنجُ منها تنج من ذي عظيمةٍ ... وإلا فإني لا أخا لكَ ناجيًا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن

السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين»[1].

ومما له علاقة بحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ: التفاؤل وترك التشاؤم والتطير، لأن الكلمة الطيبة إذا سمعها فتفاءل بها، وأنه سيحصل

(١) زاد المعاد (٣/ ٩٠).

له كذا وكذا من الخيرات، يكون من باب حسن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا، فالفأل حسن ظن بالله، والتشاؤم سوء ظن بالله جَلَّ وَعَلَا، ولهذا كان الفأل ممدوحًا ومحمودًا، والشؤم مذمومًا.

ومعلوم أن العبد مأمور بأن يحسن الظن بالرب جَلَّ وَعَلَا، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل ويكره التشاؤم، وكل ذلك من تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا، وحسن الظن به، وتعلق القلب به، وأنه لا يفعل للعبد إلا ما هو أصلح له.

المظهر الثالث: تعظيم حرمات الله عَزَّوَجَلَّ وحدوده

إن تعظيم حرمات الله عَزَّوَجَلَّ وأوامره ونواهيه علامة على تعظيم الآمر وإجلاله سبحانه، وعلى العكس من ذلك من يتعدى حدود الله عَزَّوَجَلَّ ولا يعظم حرماته، فإن هذا دليل على ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلب أو انعدامه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، ويقول في السورة نفسها: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ «أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه، فهو خير له عند ربه»(١).

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٩).

ولتعظيم حرمات الله عَزَّوَجَلَّ صورٌ متعددة من أهمها:

أ) تعظيم أوامره سبحانه ونواهيه والوقوف عند حدوده دون غلو ولا جفاء:

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه... فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته. وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه ويكبره ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه، هذا من أمحل المحال وأبين الباطل، وكفى بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وعظيم حرماته، ويهون عليه حقه»(١).

ولتعظيم أوامر الله عَزَّوَجَلَّ ومناهيه علامات، أشار إليها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «تعظيم الأمر والنهي ناشئ عن تعظيم الآمر والناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله

---

(١) الجواب الكافي (ص٦٩).

تعالى عظمة... وأول مراتب تعظيم الحق عَزَّوَجَلَّ تعظيم أمره ونهيه... وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عَزَّوَجَلَّ واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالًّا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان، والتصديق وصحة العقيدة، والبراءة من النفاق؛ فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادرًا عن تعظيم الأمر والنهي، ولا تعظيم الآمر والناهي.

ومن علامات التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحينها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة، ويعلم أنه لو تقبلت منه صلاته منفردًا، فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا، ولو أن رجلاً يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون دينارًا، لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف، وألف ألف، وما شاء الله تعالى، فإذا فوت العبد عليه هذا الربح قطعًا، وهو بارد القلب فارغ من هذه المصيبة غير مرتاع لها، فهذا من عدم تعظيم أمر

الله تعـالى في قلبـه، وكذلك إذا فاتـه أول الوقت الذي هو رضوان الله تعـالى، أو فاتـه الصـف الأول... وكذلك فوت الخشـوع في الصلاة، وحضور القلب فيها.

وينبغـي أن يعلم أن سـائر الأعمال تجري هـذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان، والإخلاص، والمحبة، وتوابعها.

وأمـا علامات تعظيـم المناهي: فالحرص عـلى التباعد من مظانها وأسبابها، وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها، كمن يهرب مـن الأماكـن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشـية الافتتان بها، وأن يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس... ومجانبة من يجاهر بارتكابها، ويحسـنها، ويدعـو إليها، ويتهاون بها، ولا يبالي بـما ارتكب منها؛ فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

ومـن علامـات تعظيم النهـي: أن يغضـب لله عَزَّوَجَلَّ إذا انتهكت محارمـه، وأن يجـد في قلبه حزنًا وحسرة إذا عُـصي الله تعالى في أرضه، ولم يُضطلع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يسترسـل مع الرخصة إلى حـد يكـون صاحبه جافيًا غير مسـتقيم على المنهج الوسـط؛ مثال

ذلك أن السنة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر، فالترخص الجافي أن يبرد إلى فوات الوقت أو مقاربة خروجه، فيكون مترخصًا جافيًا.

فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشديد غالٍ، فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بسالكه. وما أمر الله عَزَّوَجَلَّ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، بل يسلم لأمر الله تعالى وحكمه، ممتثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد والبذل والتسليم»(١).

ب) تعظيم حرمات الله المكانية والزمانية:

من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيم ما عظمه من الأمكنة والأزمنة، ولا يجوز أن يخص زمان أو مكان بتعظيم إلا ما ورد في الكتاب والسنة اختصاصه بالتعظيم، وقد سبق ذكر قوله تعالى في شعيرة الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

(١) الوابل الصيب، ت: بشير عيون (ص١٢-٢٠٦)، باختصار شديد.

- فمن الشعائر المكانية التي خصها الله عَزَّوَجَلَّ بالحرمة والتعظيم المسجد الحرام، وما فيه من الشعائر المعظمة كالكعبة المشرفة، والطواف بها، ومقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والصلاة خلفه، والصفا والمروة والسعي بينهما، وبقية مشاعر الحج كعرفة والوقوف بها ومزدلفة والمبيت فيها ومنى ورمي الجمار فيها.
- ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيم حرم مكة حرسها الله عَزَّوَجَلَّ بأن لا ينفر، ولا يقتل صيدها، ولا يقطع شجرها، ولا تلتقط لقطتها، وحرمة القتال فيها، إلا لدفع صائل. والحذر من المعصية فيها، لأنها تضاعف لحرمة المكان.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في تعظيم الكعبة والبيت الحرام: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧]، وقد كانت العرب على شركهم وجاهليتهم يعظمون البيت الحرام، ويؤمنون من دخله، حتى إن الرجل ليرى قاتل أبيه في الحرم فلا يزعجه ولا يثأر لأبيه تعظيمًا للبيت، حتى جاء الله عَزَّوَجَلَّ بهذا النبي العظيم، فلم يعظم أحد هذا البيت كتعظيمه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال يوم هجرته: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما**

خرجت»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم صلح الحديبية: **«والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»**(٢).

وأخرج الإمام أحمد وحسنه ابن حجر من حديث عياش بن أبي ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها، فإذا تركوها وضيعوها هلكوا»**(٣)، وإن أعظم شيء قام به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعظيمه لهذا البيت تطهيره من مظاهر الشرك والأصنام وعبادة غير الله تعالى. ولذا فإن مشركي قريش متناقضون في تعظيمهم لمكة والبيت الحرام، فهم يعظمونه من جانب، ويقعون فيما ينقض هذا التعظيم بعبادتهم للأصنام والأوثان. وقد كان للسلف أحوال في تعظيم بيت الله الحرام والحذر من معصية الله فيه، بل إنهم يجعلون الدنيا خلف ظهورهم، ولا يذكرونها في مثل هذه الأماكن المعظمة:

- فهذا سالم بن عبدالله بن عمر يرسم لنا درسًا، كيف يكون المسلم في المسجد الحرام؟ قال ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «دخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبدالله، فقال سلني حاجة، قال: إني أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا، قال: الآن

(١) ابن ماجه (٣١٠٨)، وصححه الألباني.
(٢) البخاري (٢٧٣١).
(٣) مسند أحمد (١٩٠٤٩)، ومصنف ابن أبي شيبة (١٤٢٨٩).

فسلني حاجة، فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا، قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها»(١). فقارن هذه الأحوال بأحوالنا في مثل هذه الأماكن المقدسة.

- وهذا نافع يقول: لقد رأيتنا ذات عشية وراح ابن عمر على نجيب، قد أخذه بمال، فلما أعجبه سيره أناخه بمكانه، ثم نزل عنه، فقال: يا نافع انزعوا زمامه ورحله، وجللوه، وأشعروه، وأدخلوه في البدن(٢).

- ومن الأماكن المعظمة مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحرم المدينة النبوية، وعدم رفع الصوت فيه، وتنظيفه وتطهيره من أدران الشرك والبدع والمعاصي، وعمارته بالعبادة والذكر وطلب العلم.

- ومن المساجد المعظمة عند الله عَزَّوَجَلَّ المسجد الأقصى، طهره الله من أدران اليهود الغاصبين والمنافقين المفسدين. ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ لهذه المساجد الثلاثة: (المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى) أن جعل الصلاة فيها تضاعف عن غيرها من مساجد الدنيا، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فضل الصلاة في المسجد الحرام**

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٦).
(٢) معرفة الصحابة، لأبي نعيم (٣/ ١٧١٠).

على غيره مئة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس خمس مئة صلاة»(١)، ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ لهذه المساجد الثلاثة أن أذن الشارع في شد الرحال إليها دون غيرها من المساجد والأمكنة الأخرى، حيث يقول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى**»(٢).

- ومن المساجد التي خصها الله عَزَّوَجَلَّ بالفضل مسجد قباء، يقول سبحانه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

- ومن الأماكن التي ينبغي أن تعظم وترفع مساجد الله عَزَّوَجَلَّ، التي تقام فيها الصلاة والذكر لله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [النور: ٣٦]، ومن تعظيمها تنظيفها وإزالة الأقذار عنها وتطييبها وتنزيهها عن أمور الدنيا: كالبيع والشراء ولغو الكلام، وإنشاد الضالة فيها، ورفع الأصوات فيها، وأخذ الزينة عند إرادة الصلاة فيها، لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

---

(١) شعب الإيمان (٣/ ٤٨٤ رقم ٤١٤٠).
(٢) مسلم (١٣٠٣).

ومما يتنافى مع تعظيم المساجد ما ظهر في السنوات الأخيرة في نغمة الجوالات من أصوات موسيقية وأجراس وكاميرات التصوير التي تضج منها جنبات المساجد، وتشوش على المصلين فيها، ولا ريب في أن هذا مما يحط من تعظيم بيوت الله وقدسيتها.

أما الشعائر الزمانية التي عظمها الله عَزَّوَجَلَّ وشرفها، والتي يجب أن نعظمها، كما أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ لأن تعظيمها من تعظيم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، فهي كثيرة، ومنها:

١) الأشهر الأربعة الحرم:

وهي (ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب)، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.. الآية [التوبة: ٣٦]، ومن آكد هذه الأشهر الحرم: شهر ذي الحجة وعشره المباركة، وشهر الله المحرم، حيث جاء فيه قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله الحرام**»[1]، وفيه يوم عاشوراء الذي نجى فيه الله عَزَّوَجَلَّ موسى وقومه المؤمنين من فرعون وقومه، وفلق لهم البحر يمشون فيه يبسًا، ولذا

---

(١) مسلم (١١٦٣).

جاء في فضل صيامه مع يوم قبله أو يوم بعده قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبلها**»(١).

ومن يعظم الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الأشهر الحرم تعظيم أيامها بالإكثار من الأعمال الصالحة فيها، وترك المعاصي وظلم النفس فيها، حيث إن إثم المعصية فيها أشد من غيره في باقي الشهور، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. ومن تعظيمها عدم القتال فيها على القول الراجح.

٢) شهر رمضان المبارك:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾... الآية [البقرة: ١٨٥]، فهو من الشهور المعظمة عند الله عَزَّوَجَلَّ، خصه سبحانه بصيامه وقيام لياليه، وفيه ليلة عظيمة القدر، هي ليلة القدر، خير من ألف شهر، وفيه تضاعف الحسنات، وتغفر فيه الزلات، كما جاء في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث طويل: «**من تقرب فيه بخصلة من الخير كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه... وهو شهر أوله رحمه، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار**»(٢)، فتعظيم هذا الشهر من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) مسلم (١١٦٢).

(٢) صحيح ابن خزيمة (٣/ ١٩١)، وقال الأعظمي: إسناده ضعيف، علي بن زيد بن جدعان ضعيف.

ومـن تعظيم هذا الشـهر التفـرغ فيه للطاعـات، والتنافس فيها، وحفظ القلوب والجوارح من الآثام والمعاصي، التي تفسد الصوم أو تنقصه، فإن إثم المعاصي في هذا الشهر أشد من غيره، ومن تعظيم هذا الشهر تعظيم شهر شعبان الذي يسبقه، وذلك بصوم أكثره استعدادًا لشهر رمضان، كما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث قالت: «كان رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصـوم حتـى نقـول: لا يفطـر، ويفطر حتى نقـول، لا يصوم. وما رأيت رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسـتكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صيامًا في شعبان»(١).

ومـن الأمور المؤسـفة اليوم ما ظهـر عند كثير من النـاس من قلة تعظيـم هـذا الشـهر الكريم العظيم، حيث يكثر في هذا الشـهر إفسـاد المفسـدين أصحاب القنوات الفاسدة المفسدة، وذلك مما يبثونه في هذا الشهر العظيم من أفلام ومسلسلات وأغاني، تسخط الله عَزَّوَجَلَّ، وتقضي عـلى المروءة والعفـة والحياء، ومع ما فيها من الفسـاد، إلا أن كثيرًا من المسـلمين الصائمين قد فتحوا بيوتهم وأعينهم لهذه القنوات، يسهرون عليها، وما يعلمون أنهم بذلك قد انحط قدر شهر رمضان وتعظيمه في نفوسهم، وهذا يدل على ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب.

- ومن الأزمنة المعظمة عند الله عَزَّوَجَلَّ أشهر الحج، ولا سيما عشر ذي الحجة، التي أقسـم الله تعالى بها في سـورة الفجر، بقوله سبحانه:

---

(١) مسلم (١١٥٦).

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢]، وهي التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨].

ومن تعظيمها كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيها، والتنافس فيها بأنواع الطاعات من صيام وصلاة وصدقة وقراءة قرآن وصلة رحم وإغاثة ملهوف ومحتاج. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام**». يعني أيام العشر[1]، ومن تعظيمها اجتناب المعاصي والأرجاس وقول الزور، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

- ومن الأزمنة المعظمة عند الله عَزَّوَجَلَّ الأعياد التي شرعها لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي (عيد الفطر وعيد الأضحى والعيد الأسبوعي وهو يوم الجمعة)، حيث خص سبحانه يوم الفطر ويوم الأضحى بصلاة العيدين وخطبتهما والذكر وصدقة الفطر والأضاحي، وخص صلاة الجمعة بخطبتها وساعة الإجابة فيها.

ومما يتنافى مع تعظيم هذه الأيام المشهودة تعدي حرمات الله فيها بفعل المعاصي وإظهار المنكرات والبدع، التي لم يشرعها الله عَزَّوَجَلَّ في

(١) البخاري (٩٦٩).

هذه الأيام أو الإسراف في الزينة والمآكل والمشارب، أو تضييع أوقاتها في اللهو واللعب.

تعظيم الشعائر المكانية والزمانية بين الغلو والجفاء

سبق القول بأنا لا نعرف حرمة مكان أو زمان ووجوب تعظيمهما، إلا من تعريف الله عَزَّوَجَلَّ لنا، أو تعريف رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأن هذا المكان بعينه أو هذا الزمان بعينه معظم عند الله عَزَّوَجَلَّ، فنعظمه تعظيمًا لله سبحانه، وما سوى هذين المصدرين فلا عبرة به في ذلك، ومع ذلك، فإن ما عظمه الله عَزَّوَجَلَّ، أو عظمه رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يجب أن ينضبط تعظيمنا له بضابط الشرع وميزانه، وأن أبرز سمة لهذا الميزان الوسطية والتوازن فيه بين الغلو والجفاء، وبين الإفراط والتفريط، وباب الإفراط وباب التفريط هما بابان للشيطان، لا يبالي من أيهما دخل على العبد، لأن مراد الشيطان صرف العبد عن الصراط المستقيم الوسط العدل، والميل عن الوسط، سواء إلى الغلو والإفراط، أو إلى الجفاء والتفريط، هو انحراف عن الحق، وهذا ما يريده الشيطان ويفرح به، وهنا سؤال: كيف يسلم العبد من الانحراف في باب تعظيم حرمات الله المكانية والزمانية من الغلو والجفاء؟

إن السلامة من الانحراف عن الوسط العدل في باب تعظيم حرمات الله عَزَّوَجَلَّ تقوم على أسس ثلاثة:

الأسـاس الأول: أن يكون المـكان أو الزمان المـراد تعظيمهما قد دل الدليل عليه من الكتاب أو السنة الصحيحة على حرمته ووجوب تعظيمـه. وما لم يعظمه الله عَزَّوَجَلَّ ولا رسـوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الأزمنة أو الأمكنـة، فـلا يجـوز تعظيمهـا كمن يعظم مـن الأزمنة ما يسـمى بالأيـام الوطنيـة، ومن الأمكنة مـا ظهر في الآونة الأخـيرة من إحياء سوق عكاظ وما يكون فيه من الأعمال الجاهلية.

الأساس الثاني: عدم التقصير والتفريط في القيام بتعظيم ما عظمه الله عَزَّوَجَلَّ التعظيم الذي أمر الشارع به، وذلك بأن يقوم في القلب حبه وتعظيمه وعدم استهانته وامتهانه، لأن هنالك من لا يبالون بتعظيم حرمة ولا شـعيرة زمانية أو مكانيـة، وهؤلاء قد ضرب الله تعالى على قلوبهم الغفلة، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ العافية، وقد سبق ذكر شيء من الأمثلة على امتهان حرمات الله المكانية أو الزمانية.

وممـا يدخل في عـدم تعظيم حرمـات الله المكانيـة والزمانية فعل ما يسـخط الله عَزَّوَجَلَّ فيها، وقد ذكر الشـيخ سـفر حفظـه الله تعالى في محاضرة له عن تعظيم حرمات الله عَزَّوَجَلَّ أمثلة للتفريط في تعظيم شهر الله الحرام أو حرمة المسـجد الحرام، حيث يقول: «ومن تعظيم شعائر الله في هذا الشهر أو في هذا البلد ما يلي:

١) تعظيمه عن الشرك:

إن من أول وأعظم ما يعظم به هذا البلد الحرام، أن يجتنب فيه أكبر الكبائر وأعظم الموبقات، وهو الشرك بالله تعالى، فإنه لا يليق بهذا البلد الطيب الطاهر، وهذا البيت الذي بناه الخليل عليه وعلى نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الصلاة والسلام، على التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، لا يليق به أبدًا أن يحدث فيه محدث، ولا سيما إذا كان الإحداث هو الشرك الأكبر، عافاني الله وإياكم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يحذر في كتابه، ولا في سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذنب أعظم من الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فهذا هو الداء العضال الذي بعث الله تبارك وتعالى الرسل جميعًا لينقذوا الناس منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلا يليق بهذا البيت المعظم المطهر أن يحدث فيه الشرك أبدًا بأي حال من الأحوال، وقد بعث الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد، وبتجديد ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتحطيم الأصنام، والقضاء على الشرك بكل أنواعه وأشكاله، فمن جاء وأراد أن يحدث أو يعيد معالم الشرك وشعائر الشرك في هذا البلد؛

فقد ضاد ما أمر الله تبارك وتعالى به، وخان الله ورسوله والمؤمنين، وقد تخلى عن ملة إبراهيم الخليل التي أمرنا الله تبارك وتعالى باتباعها، وجاءنا ليجدد ملة عمرو بن لحي الخزاعي، الذي كان أول من سيب السوائب، والذي حرف الناس وأهل هذه الجزيرة من عبادة الله وحده لا شريك له على ملة إبراهيم إلى عبادة الأصنام والحجارة، كما كان يفعل أهل الجاهلية في الأرض، فهذا أول ما يجب اجتنابه.

٢) تعظيمه عن البدع:

إن البدع هي أعظم المعاصي بعد الشرك بالله تبارك وتعالى، وكفى بها شؤمًا وشرًّا؛ لأنها ربما أحبطت العمل كله، بل بعضها لا شك أنه يحبط العمل كله، فلا تنفع الإنسان عبادة ولا قراءة ولا ذكر ولا جهاد مع هذه البدع. كما صح عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيحين وغيرهما في صفة الخوارج أنه قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية**»(١)، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وقراءتكم إلى قراءتهم**»(٢)، إن المخاطبين بهذا هم الصحابة الكرام، ومع ذلك فإن قراءة الخوارج، وعبادتهم أشد وأكثر من عبادة الصحابة، أي: أن الصحابة يحقرون قراءتهم

(١) البخاري (٥٠٥٨).

(٢) لم أقف عليه بهذا النص مرفوعًا، ولكنه من قول هشام بن حسان. انظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ٥٨).

وصلاتهم وعبادتهم عندما يرون قراءة الخوارج، كما ذكر ذلك أبو سعيد، وكما رأى ذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، لما دخل إلى معسكرهم، ومع ذلك فإنهم يمرقون من الدين، بل لا تتجاوز قراءتهم حناجرهم، كما أخبر صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك بسبب ما ابتدعوه من البدع، وقد جاء أيضًا عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«لا يقبل الله من صاحب بدعة صرفًا ولا عدلاً ولا صيامًا ولا صلاة»**[1]، فماذا يريد صاحب البدعة بها، إذا كان الله تبارك وتعالى لا يقبل منه شيئًا، ولا تنفعه مهما كثرت، ومهما تعبد واجتهد فيها؟! فكيف يجرؤ مبتدع أن يبتدع، ويرتكب هذا الإثم العظيم في بلد الله الحرام، الذي أمر الله تبارك وتعالى بتعظيمه؟!

٣) تعظيمه وتطهيره من المعاصي الظاهرة:

يجب تعظيم وتطهير هذا البيت الحرام، وهذه البقعة الطيبة الطاهرة من المنكرات والمعاصي الظاهرة، ونحن نشاهد في الأيام التي يسمونها أيام العطلة أو الإجازة -والتي يتوافد فيها الناس، والحمد لله على هذا البلد الحرام- كثيرًا من المظاهر التي تدل على أن كثيرًا من هؤلاء الناس من المقيمين أو القادمين لا يعظمون شعائر الله، ولا يعظمون هذا البيت، كما أمر الله تبارك وتعالى. فبعضهم يأتي إلى هذا

(١) والبدعة التي لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ من صاحبها قولًا ولا عملًا هي البدعة المكفرة.

البلد الحرام، وما يكاد يتحلل من عمرته حتى ينطلق في الأسواق، ويرتع في الملاهي وفي ترك الفرائض، وتبدأ النساء بالتبرج، والتهتك، وتكون من المصائب والأمور ما يضج منها المؤمنون، ويضج منها هذا البلد الحرام. وهذه مأساة كبرى ومصيبة عظمى، مع ما هو معلوم من ضعف في الهيئات أو المؤسسات القائمة على الإنكار، لكن يزيد الطين بلة أن تأتي هذه الجموع، فتنتشر المحرمات من السفور والتبرج وترك صلاة الجماعة، فترى الناس أكوامًا وجماعات، حتى بالقرب من المسجد الحرام، وتقام الصلاة، ولا يجدون من ينكر عليهم من أهل البلد، وهذه من المنكرات، ومن المظاهر الدالة على أن هؤلاء لا يعظمون شعائر الله، ولا يعظمون ما عظم الله تبارك وتعالى.

وإنه مما يثير العجب أن يجد الإنسان أن هنالك مظاهر كثيرة، كان بالإمكان أن تتدارك، ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلو أننا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، وكل من ذهب إلى الصلاة أمر وحث إخوانه عليها، وكل من كان في السوق وأقفل دكانه أمر ونهى إخوانه -أيضًا- بذلك وحثهم عليه، ولا يشترط أن يكون عضوًا في الهيئة، كما يتبادر إلى أذهان البعض، بل كل من رأى التبرج أو السفور أو الانحلال أو المغازلات أو ما أشبه ذلك من المعاكسات، فإنه يبادر وينكر، لو فعلنا هذه الأمور لأحيينا هذا الأمر العظيم.

إن تركنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو- أيضًا- من عدم

تعظيـم شـعائر الله، فيتبلد الحس على المنكـرات والمعاصي والذنوب، حتى تصبح مألوفة، نسأل الله العفو والعافية. وأعظم من ذلك وأشد منـه، وهو من المنكرات الدائمة في هذا البلد الحرام، في مواسـم الخير وفي كل العـام، وهـو ممـا يدمي قلـوب المؤمنين، ويجرح مشـاعرهم، ويتنافى مـع تعظيم هذا البلد، وتعظيم حرمـات الله: أن نجد منارات أو علامـات أو شـعائر ما حرم الله تبارك وتعـالى تنتشر في هذه البلدة الطيبة الطاهرة. ومن أوضحها البنوك الربوية التي كما ترون -في هذه الأيام- يكتتب البعض في جلها، ويحذر العلماء، وعلى رأسهم سماحة الشيخ الوالد عبدالعزيز ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ من هذا الاكتتاب. والواجب في الحقيقة -كما تعلمون- وكما هو ظاهر من فتاوى علمائنا الأفاضل، وهو صريح كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ألا توجد هذه العمارات أو المنارات أو الشـعائر -شـعائر الضلال والفجور والمعصية- ولا يجوز أن تبقى في هذا البلد الحرام، في أي مكان، وفي أي زمان، فعندما يجد الحاج أو المعتمر أو المقيم أن هذه الأجهزة أو المؤسسـات الربوية قائمة في هذا البلد ثم يسـكت، فالـذي يحدث -كما ترون- أن النـاس يألفون هذا المنكـر، ويصبـح لديهم أمر مألوف، ثم بعد ذلـك يصبح الإنكار على مـن أنكره، وهذا بلا شـك مـن عدم تعظيم شـعائر الله. وفي الجاهلية -كما تعلمون- كانوا يسـتحلون المحارم ومنها الربا، ولم يكن العرب -أقـول هذا بكل أسـف- يعلنون الربـا بمثل هذا الإعـلان، وبمثل

هذا الشكل الصريح، الذي يفعله الإنسان في هذا العصر حول بيت الله الحرام، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرفع هذا البلاء عن المسلمين إنه سميع مجيب.

ويلحق بذلك مما يتنافى مع تعظيم شعائر الله ما يجده القادم إلى هذا البلد أو المقيم فيه من انتشار أماكن لبيع اللهو والفساد ومشجعات الرذيلة من محلات بيع الأفلام الخليعة الماجنة ومحلات الأغاني ويعجب الإنسان كيف توحد هذه الملاهي وهذه الدواعي إلى الرذيلة والفساد في هذا البلد الحرام، وكيف استجاز أصحابها أن يفتحوها فيها، وكيف استجاز القائمون على الأمر أن يسكتوا عن وجود هذه الأمور. والله إنها لمصيبة عظيمة أن يأتي الحاج من أقاصي الدنيا، وإذا به يجد الأفلام والأغاني التي يراها في أوربا وأمريكا، تباع بجوار بيت الله الحرام، بل حتى في الأسواق، يعلقون تلك الملابس المتعرية الشفافة التي لمجرد رؤيتها تستثار الشهوة وتستحث الرذيلة، نسأل الله العفو والعافية، وكأنهم في مكان ما غير بلد الله الحرام، وكأن الأمر لا يهم هؤلاء الناس في شيء. فهذه في الحقيقة من المنكرات الظاهرة العظيمة التي تتنافى مع تعظيم شعائر الله، وتعظيم هذا البلد الذي أمر الله تبارك وتعالى بتعظيمه.

ومن أكثر ما ينتشر في هذه البلدة الطاهرة أيضًا مما يجب أن ينبه عليه من المحرمات الأخرى: الغش في التجارة، الذي استغله كثيرٌ

من الناس في المواسم، وفي أيام العطل أو غيرها مما يكثر فيه الناس؛ فيغشون في المعاملات، ويطففون في المكيال والميزان، ويخرجون ويبيعون ما قد انتهى تاريخه من البضائع، ولا يتحرجون من ذلك، ويغشون في المساكن، وفي أمور كثيرة جدًّا، ويقولون: هذا موسم! فيقال لهم: من أباح لكم- بما أنه موسم- أن تفعلوا هذا، وأن تنتهكوا شعائر الله التي أمر الله تبارك وتعالى بتعظيمها، وأن تقدموا على غش إخوانكم المسلمين الحجاج أو الزوار، أو من جاء لتعظيم شعائر الله؟! فأصبح المؤمن يجد الحرج الشديد والكرب العظيم في إنكار المنكرات؛ لأنها من كثرتها تستدعي جهودًا عظيمة، وأجهزة متخصصة، وتعاونًا جديًّا وثيقًا من طلبة العلم... في سبيل القضاء على كل ما يتنافى مع تعظيم هذه البلدة الطيبة الطاهرة، التي جعل الله تبارك وتعالى الذنب أو العمل فيها ليس كغيره. قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

قال بعض العلماء: «لم يرتب الشرع أو يرتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العقوبة على عمل بمجرد الإرادة إلا في هذه البلدة، أما في غيرها فإن الذنب إنما يترتب على الفعل لا على الإرادة، ولا غرابة في ذلك، لأن الله تعالى اختصها وشرفها بما تعلمون»[1].

---

(١) محاضرة للشيخ سفر (كيف تعظم شعائر الله؟): صوتيات الشبكة الإسلامية (باختصار).

الأساس الثالث: الحذر من تعظيم ما لم يأذن الله عَزَّوَجَلَّ بتعظيمه أو الغلو في تعظيم ما أمر الله بتعظيمه، بما لم يأذن به سبحانه، وللتوضيح أذكر المثالين الآتين:

أ) في حرمة المكان:

وردت النصوص من الكتاب والسنة في تعظيم مكة والمسجد الحرام، وهذا حق، ولكن الزيادة والغلو في تعظيم هذا المكان المقدس بما لم يأذن به الله عَزَّوَجَلَّ أو بما حرمه الله تعالى من الشرك والبدع، فإن هذا حرام، ينافي التعظيم، ولا يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، كمن يغلو في تعظيم الكعبة، يتعلق بأستارها، أو يتمسح بالمقام، أو يذهب إلى غار حراء وغار ثور يتبرك بهما، ويصلي عندهما، معتقدًا فضل ذلك وبركته، أو يقصد إلى المكان الذي يقال فيه: إن ولادة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه، فيتبرك به. كل هذا من الغلو والزيادة في التعظيم، بما لم يأذن به الله تعالى.

ب) في حرمة الزمان:

وردت النصوص في تعظيم الأشهر الحرم، كما في قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾... الآية [التوبة: ٣٦]، وتعظيم الأشهر الحرم حق، ولكن بالصفة الشرعية التي أذن الله عَزَّوَجَلَّ، وأمر بها. أما أن يحصل الغلو بالزيادة في تعظيمها

بـما لم يـأذن به الله تعالى، فـإن هذا من البـدع المذمومة عنـد الله تعالى، لا يقبلهـا الله عَزَّوَجَلَّ مـن صاحبها، قـال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[1]، ومثالًا على ذلك، كمن يخص شهر رجب المحرم بأنواع من العبادات من صلاة أو صيام أو ذبح، يقول الشيخ سـفر حفظـه الله تعـالى عن هذه الأنـواع من الغلو في تعظيم الأشـهر الحرم وتعظيم شـهر شـعبان: «من الناس من يصـلي في أول جمعة من رجب صـلاة مخصوصة، ويسـمونها صلاة الرغائـب، وهذه الصلاة باطلة موضوعة، لم تصح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الكيفية ولا في هذا الشـهر؛ ولذلك يعلل الحافظ ابـن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ، فيقول: لماذا لم ينكـر هذه الليلة إلا العلماء المتأخرون كابن الجوزي وأبي إسـماعيل الهروي وأمثالهم؟ قال: لأنها لم تحدث إلا بعد الأربع مئة، فهذه الليلة التـي يصلى فيها صلاة الرغائب -كما تسـمى- لم تحدث ولم تبتدع إلا بعـد الأربع مئة، فلم يتكلم فيها السـلف الأولـون، لأنها لم تحدث في أيامهـم، وكفى بذلك دليلاً على أنها بدعة، وعلى أنه لا يجوز لأحد أن يعمـل بها، وأما مـا تزخر وتمتلئ به كتـب الأذكار البدعية من رافضة وصوفيـة بالحديث عن هذه الصلاة وفضلهـا ووقتها وكيفيتها، وأنها في هذا الشـهر في أول جمعةٍ منه، إلى غير ذلك، فكله من البدع التي لا أصل لها.

---

(١) البخاري معلقًا (٣/ ٦٩)، ومسلم (١٧١٨).

ومما هو منتشر أيضًا في شهر رجب، وقد رأيناه ولمسناه بين العامة: أنهم يخصونه بأنواع من الصيام، فبعضهم يصوم الشهر كله، وهذا منهي عنه، ولم يصم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهرًا كاملاً إلا رمضان، وثبت ذلك من وجوه كثيرة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن الصحابة والتابعين من السلف: أنهم نهوا أن يصام شهر كله إلا رمضان، وكان أكثر الشهور بعد رمضان صيامًا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين هو شهر شعبان. وأما رجب فلم يثبت ولم يصح في صيامه كله أو تحديد أيام منه شيء، وبعضهم يحدد فيجعلها ثمانية أيام، وبعضهم يجعلها اثني عشر أو غير ذلك، وهذا التحديد كله أيضًا باطل لا أصل له، ولو أن الإنسان صام الاثنين أو الخميس أو الأيام البيض، أي: صام ما جاء وثبت وصح في رجب وغير رجب فلا بأس بذلك، لكن لا ينبغي له أن يخص رجب -فقط- بأن يصوم هذه الأيام فيه، لأن ذلك أيضًا يدخل في شيء من البدع، والإنسان إنما يتبع، ويطمع في الأجر والفضيلة، إذا كان في ذلك متبعًا وليس مبتدعًا، فهذا -كما قلت- لمسنا انتشاره بين العامة، نتيجة لما تأوله بعضهم، أو نسبه إلى بعض كتب الفقه، أو بعض العلماء، ولا مستند لهم في ذلك، والله تبارك وتعالى إنما قال في تعظيم الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهذه الآية نستطيع أن نستنبط منها أن المطلوب من الإنسان في الأشهر الحرم أن يعظمها بأن لا يظلم فيها نفسه. بمعنى أن أي عمل كنت تعمله

في غير الأشهر الحرم من المعاصي أو الذنوب أو الفجور، يجب عليك أن تكف عنه في هذا الشهر، وإن كان المطلوب منك أن تكف عنه في أي شهر، لكن في هذا الشهر مطلوب منك أن تكف عنه أكثر، فالطلب منك أقوى والحض أشد. وكذلك لا زيادة في المأمورات، ولكن كل فعل أنت مأمور به في سائر الشهور والأيام، فاعلم أنك في الأشهر الحرم، وكذلك في الأماكن الحرم أو الأماكن المقدسة، مطلوب منك أن تعمله أكثر، بمعنى: أن مخالفتك بترك هذا الأمر في أي شهر -كشهر ربيع- لا يجوز؛ لأن الله تعالى أمرك به، ولا يجوز أن تخالف أمر الله، لكنك لو خالفت أمر الله في الشهر الحرام لكان ذلك أشد، أو لو خالفت وعصيت أمر الله في البلد الحرام، لكان ذلك أشد. إذًا، لا زيادة في العبادة على ما شرع الله تبارك وتعالى، وإنما المطلوب هو زيادة الامتثال بفعل المأمورات وترك المنهيات، فالمقصود: أي لا تظلموا فيهن أنفسكم بترك المأمور وفعل المحظور.. إلا ما جاء في الشرع الحث على فعله في بعض الأشهر الحرم كصيام يوم عرفة ويوم عاشوراء أو صيام شهر محرم.

وأما شهر شعبان فإن كثيرًا من الناس في هذا البلد الحرام، يعظمونه بما لم يعظمه الله تبارك وتعالى به، ومن ذلك تعظيمهم ليلة النصف منه، ويزعم بعضهم، ويدعي أنها الليلة المباركة، التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وذلك مردود بصريح كتاب الله تبارك وتعالى، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، فدل ذلك على أن الليلة المباركة تكون في رمضان، وأنها ليلة القدر، وهذا واضح جلي لمن تأمله إن شاء الله تبارك وتعالى. على أن بعض العلماء يصحح في ذلك حديثًا، وهو أنه إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فإن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يتجلى أو ينظر إلى المؤمنين؛ فيغفر لهم جميعًا إلا المشرك أو المشاحن[١] -أي: صاحب العداوة والبغضاء من المسلمين- وهذا الحديث على فرض صحته وعند من يصححه، لا يدل على اختصاص هذه الليلة بنوع من أنواع العبادة، وإنما هذا تفضل من الله تبارك وتعالى، وإن ثبت فهو دليل من الأدلة الكثيرة على سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وفضله ولطفه بهذه الأمة، فلم يشرع الله تعالى لنا عملًا معينًا نعمله في هذه الليلة، وإنما يعظم هذا الشهر استعدادًا لشهر رمضان، وهذه هي القاعدة نفسها التي ذكرناها، وهي: أن تمتثل أوامر الله من صلاة الجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفعل الخيرات والطاعات، وكذلك بترك ما نهى الله تبارك وتعالى عنه. وأما الصوم فقد ثبت أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما كان أكثر صيامًا في شهر بعد رمضان منه

---

(١) ابن ماجه (١٣٩٠)، وابن حبان (٥٦٦٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١١٤٤).

في شعبان، فالصيام في شهر شعبان هذا سنة، ومن صام منه ما استطاع فقد وافق السنة -إن شاء الله- وهذا ينفرد به شهر شعبان عن شهر رجب كما أسلفنا»(١).

جـ) تعظيم حرمة دم المسلم:

ويكفينا في ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت**»(٢).

المظهر الرابع: تعظيم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

إن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيم كتابه الكريم وكلامه الشريف، فكلام الله عَزَّوَجَلَّ صفة من صفاته الجليلة، وصفات الله عَزَّوَجَلَّ كلها عظيمة وكريمة وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ كتابه الشريف بصفات كثيرة تدل على عظمته وشرفه وبركته منها:

صفة العظمة: وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

---

(١) محاضرة: (كيف تعظم شعائر الله؟) للشيخ سفر الحوالي، موقع الشبكة الإسلامية للصوتيات باختصار.
(٢) صحيح مسلم (١٦٧٩)، والبخاري (١٠٥).

صفة الكرم: وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧].

صفة العزة: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

صفة المجد: وذلك في قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

صفة البركة: وذلك في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

صفة الإبانة والفصاحة: وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

صفة العلو والحكمة: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

ووصفه بالموعظة والشفاء والهدى والرحمة: وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

هذه بعض أوصاف القرآن الكريم، وحق له ذلك، فهو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وحق من هذه بعض صفاته أن يعظم ويجل ويحب، ويقدر حق قدره.

من لوازم تعظيم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ومقتضياته:

أولاً: احترامه وتوقيره ورفعه عما يدنسه، والحذر من أي شكل من أشكال الإهانة له.

ومن ذلك رفع أي ورقة ساقطة على الأرض فيها كلام الله عَزَّوَجَلَّ، أو ذكره سبحانه، وتخصيص مكان لمثل هذه الأوراق المحترمة، لتحرق بعد ذلك، أو تدفن، وأن لا تخلط بالأوراق الممتهنة، وياليت هذا العمل يعمم في البيوت والمدارس والشركات والدوائر الحكومية، فإن هذا من تعظيم كلام الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه الحسنى، وهذا من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ. ومن تعظيمه أيضًا احترامه: أن لا يتكأ عليه أو يتوسد أو تمد الرجل إليه، وأن يتناول باليد اليمنى، وكذلك يعطى بها، ومن تعظيمه أن لا يرمى به إلى من يتناوله عن بعد، بل يتناوله مناولة مباشرة.

ومن تعظيمه أن يرفع فوق كل كتاب، ولا يرفع فوقه شيء من الكتب، وأن لا يعرض للتلف والغبار كوضعه دائمًا في حرارة الشمس أو داخل السيارة، مما ينشأ عنه تلف جلدته أو أوراقه، وأن يدفن ما بلي من أوراقه في مكان نظيف.

ومن تعظيمه تطهير الفم عند قراءته بالوضوء والسواك، فقد روى ابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك»[1].

ومن تعظيم القرآن رفع ألفاظه من أن تمتهن، ويضرب بها الأمثال، فيما يحصل من الناس من أحاديث لغو وهزل.

---

(١) سنن ابن ماجة (١/ ١٠٦ رقم ٢٩١)، وصححه الألباني.

ثانيًا: الإكثار من تلاوته والإنصات عند سماعه، والحذر من هجر تلاوته أو سماعه.

ثالثًا: محبته والفرح به والسرور بتلاوته وسماعه.

رابعًا: تدبر آياته، وتفهم معانيها، وإحضار القلب عند تلاوته أو سماعه.

خامسًا: ومن ذلك الوقوف عند آيات التسبيح، فينزه الله تعالى، وعند

آيات الوعد والوعيد، لسؤاله سبحانه الجنة، والاستعاذة به من النار، وعند قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسنن الله عَزَّوَجَلَّ في نصرهم، وتدمير أعدائهم، والسير في ضوء هذه السنن في الدعوة والجهاد.

سادسًا: الانقياد لأحكام القرآن والعمل بها، ومحاسبة النفس في الامتثال لأوامره سبحانه ونواهيه، ومن أهمها تحقيق التوحيد، ثم أحكام الحلال والحرام.

وينبغي لمن منَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه بحفظ القرآن بعضه أو كله أن يعرف بسمته وهديه، محاسبًا لنفسه، يعرف القرآن في سمته وخلقه. قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس

نائمـون، وبنهـاره إذ النـاس مفطـرون، وبحزنه إذ النـاس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخلطون، وبخشوعه إذ الناس مختالون، وينبغي أن يكون باكيًا محزونًا، حكيمًا عليمًا سكينًا، ولا يكون جافيًا ولا غافلًا ولا صاخبًا ولا صياحًا ولا حديدًا)(١).

سابعًا: الحكم به، والتحاكم إليه، والرضا به، والتسليم لأحكامه. وتعظيم نصوصه، قـال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

ثامنًا: الاستشـفاء به من أمراض القلـوب وآفاتها، ومن أمراض الأجساد وعاهاتها.

تاسـعًا: تعظيم نصوصه وإجلالها والانقياد لها، وسـلامة القلب من أي اعتراض على أخباره، بأي شـبهة، أو على أحكامه بأي شهوة، وأن لا نلوي أعناق نصوصه لتوافق أهواءنا، بل نلوي أعناقنا لتوافق نصوصه وتخضع لها.

عـاشرًا: ابتغـاء وجـه الله عَزَّوَجَلَّ في تلاوته وحفظـه، وأن لا يكون للرياء وأعراض الدنيا.

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ٢٤٦).

حادي عشر: الخشوع عند قراءته وتلاوته والبكاء عند وعده ووعيده وزواجره وعقوباته بأعدائه، وعند ذكر أسمائه الحسنى، وتعظيمها وتنزيهها، والتعبد لله تعالى بها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف عباده العلماء الخاشعين عند تلاوة كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقال عن أنبيائه وأوليائه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وحث عباده المؤمنين على الخشوع لذكره، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وللنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسلف رحمهم الله تعالى مواقف وأحوال مع كتاب الله عَزَّوَجَلَّ تدل على تعظيمهم وخشوعهم لكلام الله عَزَّوَجَلَّ:

- عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال قال لي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ عليَّ**» قلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل! قال: «**نعم**»، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا

مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] قال: «حسبك الآن». فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان[(١)].

• وعن عبدالله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بنا، وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء[(٢)].

• وعن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقال عبيد ابن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبكت وقالت: قام ليلة من الليالي، فقال: يا عائشة ذريني أتعبد لربي. قالت: قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام وتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بل حجره، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا. لقد أنزلت عليَّ الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٣)].

---

(١) البخاري (٥٠٥٠).
(٢) أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (٣/ ١٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٤٤).
(٣) صحيح ابن حبان (٥٢٣) من الموارد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٨).

- ويقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد عشنا برهة من دهرنا، وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيتعلم حلالها، وحرامها، وآمرها، وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها. كما تعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، فينثره نثر الدقل»[(١)].
- ويقول عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تهذوا القرآن هذًّا كهذِّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب»[(٢)].
- وعن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما اشتد برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعه، قيل له في الصلاة، فقال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**». قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البكاء، قال: «**مروه فليصل**». فعاودته، فقال: «**مروه فليصل، فإنكن صواحب يوسف**»[(٣)].
- وعن علقمة بن أبي وقاص قال: «كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ في العشاء الآخرة سورة يوسف، قال: وأنا في مؤخر

(١) السنن الكبرى، للبيهقي (٣/ ١٢٠).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٨٨٢٥).
(٣) البخاري (٦٨٢).

الصف، حتى إذا ذكر يوسف سمعت نشيجه، وأنا في مؤخرة الصفوف»[١].

• وعن عبدالله بن عبيدة قال: رأت صفية زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومًا قرأوا سجدة فسجدوا فنادتهم: هذا السجود والدعاء فأين البكاء[٢].

• وعن عبدالله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سمعوا القرآن. قالت: تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله، قال قلت: فإن ناسًا هاهنا إذا سمع أحدهم القرآن خر مغشيًّا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[٣].

• عن عقيل بن جابر عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني في غزوة ذات الرقاع فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين، فحلف أن لا أنتهي حتى أهريق دمًا في أصحاب محمد، فخرج يتبع أثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلًا، فقال: «**من رجل يكلؤنا**» فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: «**كونا بفم الشعب**».

(١) مصنف عبدالرزاق (٢٧٠٣).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٦٨١).
(٣) شعب الإيمان، للبيهقي (٢/ ٣٦٥).

قـال: فلما خرج الرجلان إلى فم الشـعب، اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم، فرماه بسـهم، فوضعه فيه، فنزعه حتى رماه بثلاثة أسـهم، ثم ركع وسـجد، ثم انتبـه صاحبه، فلما عـرف أنهم قد نـذروا به هـرب، ولمـا رأى المهاجري ما بالأنصـاري من الدم، قال: سبحان الله، ألا أنبهتني أول ما رمى؟ قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها[١].

- قـال ابـن أبي مليكـة: صحبـت ابـن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -يعني في السـفر- فـإذا نزل قام شـطر الليل، يرتـل القرآن حرفًـا حرفًا، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب[٢].

- وعـن بكر بن منير قال: كان محمد بن إسـماعيل يصلي ذات يوم فلسعه الزنبور سـبع عشرة مرة، فلما قضى صلاته، قال: انظروا إيـش هذا الذي آذاني في صلاتي؟ فنظروا، فإذا الزنبور قد ورمه في سـبعة عشر موضعًا، ولم يقطـع صلاته. قلت: ورواها ورَّاقه بالمعنى، وزاد قال: كنت في آية، فأحببت أن أتمها[٣].

(١) سنن أبي داود (١٩٨)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٩٣).
(٢) شعب الإيمان (٢/ ٣٦٥).
(٣) تغليق التعليق على صحيح البخاري (٥/ ٣٩٨).

• وعـن محمد بن جحادة قال: قلت لأم ولد الحسـن البصري: ما رأيت منه- أي الحسن البصري-؟ فقالت: رأيته فتح المصحف، فرأيت عينيه تسيلان، وشفتيه لا يتحركان[١].

ثـاني عـشر : إكرام حامـل القرآن الحافـظ له والمعلم لـه واجلاله وتوقـيره. قـال الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من إجـلال الله: إكرام ذي الشـيبة المسـلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي، وإكرام ذي السلطان المقسط**»[٢].

وفي ختـام الحديث عن تعظيم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، أود الإشـارة إلى بعض المظاهر، التي تضاد تعظيم القرآن وإجلاله:

الأول: هجـر تلاوتـه، وهجر تدبـر معانيه، والزهـد في حفظ ما أمكن من آياته، أو نسيان وإهمال ما كان محفوظًا.

الثـاني: مخالفة أوامره ونواهيه، والإصرار عليها مما يدل على عدم تعظيمها.

الثالث: الحرج من بعض آياته، التي فيها مخالفة للهوى أو المعتقد، ومن ذلك التأويلات الفاسـدة لبعض آيات القرآن لتوافق المعتقدات والأهواء الفاسدة.

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي (٢/ ٤١١).
(٢) رواه أبو داود (٤٨٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٧٤).

الرابع: عدم التسليم لأحكامه والإذعان لها، والجدال بالباطل في الاعتراض عليها.

الخامس: التثاقل في الحكم بها أو التحاكم إليها.

السادس: الزهد في الاستشفاء به لأمراض القلوب والأبدان، والتهوين أو الشك في أثر القرآن في علاج الأمراض.

السابع: مس القرآن بغير طهارة، ومع الخلاف في جواز مس القرآن للمحدث، إلا أن الجميع متفقون على أفضلية الطهارة لمن يريد مس المصحف، لأن في ذلك تعظيمًا لكلام الله عَزَّوَجَلَّ.

الثامن: الدخول به في أماكن الخلاء والأماكن النجسة.

التاسع: الاتكاء عليه أو توسده، أو جعله عند الأقدام.

العاشر: تعليق آياته في الجدران والسيارات للزينة أو عن العين، مع أنه يعصى الله عَزَّوَجَلَّ داخل هذه الجدران، بوجود أجهزة الفساد من تلفاز وقنوات، فيها ما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ من الأغاني والمشاهد الخليعة الماجنة، وفي هذا استهانة لكلام الله عَزَّوَجَلَّ المعلق.

الحادي عشر: افتتاح الحفلات والمناسبات بالقرآن، مع ما تتضمنه هذه الحفلات من معاصٍ يمنعها القرآن من غناء وموسيقى، وأشعار مدح وثناء فيها تعظيم للرؤساء والمنافقين، وفي هذا استهانة بكلام الله عَزَّوَجَلَّ الذي استفتح به هذه المناسبات.

الثاني عشر: تصغير اسم المصحف، كأن يقول عندي مصيحف، أو مصحف صغير، ونحوهما.

الثالث عشر: عدم الإنصات عند سماع القرآن، واللغو واللهو عنده بالكلام الباطل.

الرابع عشر: وضعه مع الكتب أو المجلات السيئة في رف واحد، أو وضع أي كتاب آخر فوقه.

الخامس عشر: عدم احترام الأوراق التي فيها كلام الله عَزَّوَجَلَّ، أو أسماؤه الحسنى، وإلقاؤها مع الأوراق الممتهنة، أو استخدامه كسفرة للأكل، ويتأكد التنبيه هنا على الآيات القرآنية في الكتب المدرسية، حيث تلقى بعد انتهاء الدراسة مع الأوراق الممتهنة في سلات المهملات أو حاويات البلدية، ولا يخفى ما في هذا من إهانة لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم تعظيمه سبحانه.

سئلت اللجنة الدائمة للإفتاء السؤال التالي:

يوجد بعض علب لبيع الألبان، ومكتوب على العلبة بعض آية من القرآن الكريم هو ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، ومصير هذه العلب بعد الاستعمال الرمي في الكناسات وامتهانها، فإن كان لا يجوز وضعها على العلب ولا رميها في الأقذار، فأفيدوني، لأبلغ باعة الألبان، ليحتاطوا في ذلك، والله يحفظكم؟

وقد أجابت اللجنة الدائمة بما يلي:

«إن هؤلاء يأخذون كلمات من القرآن والحديث، ولا يقصدون بذلك حكايتها على أنها قرآن أو حديث، ولذلك لم يقولوا: قال الله تعالى. ولا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما أخذوها، استحسانًا لها، ولمناسبتها ما قصدوا استعمالها فيه من جعلها في لافتة، أو استعمالها في الدعاية إلى ما كتب عليه، وبذلك خرجت في كتابتهم عن أن تكون قرآنًا أو حديثًا، ومثل هذا يسمى اقتباسًا، وهو عند علماء البديع أخذ شيء من القرآن أو الحديث على غير طريق الحكاية، ليجعل به الكلام نثرًا أو نظمًا، وعلى هذا لا يكون حكمه حكم القرآن من تحريم حمله أو مسه على غير المتطهر، أو تحريم النطق به على من كان جنبًا، ولكن لا يليق بالمسلم أن يقتبس شيئًا من القرآن أو الحديث للأغراض الدنيئة، أو يكتبه عنوانًا أو دعاية لصناعة أو مهنة أو عمل خسيس، لما في نفس الاقتباس لذلك من الامتهان، وأما رمي الأوراق المكتوبة أو العلب أو الأواني المكتوب عليها في الأقذار ونحوها، أو استعمالها فيما فيه امتهان لها، فلا يجوز، وإن كان المكتوب قرآنا كان ذلك أشد خطرًا، وإن قصد برمي ما فيه القرآن امتهانه، أو كان مستهترًا بقذفه في القاذورات أو باستعماله فيها، كان ذلك كفرًا»[1].

وسئلت اللجنة أيضًا السؤال التالي:

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، فتوى (رقم ٢٠٤).

ما حكم من يضع متاعه أو حاجياته، أو يلفها في كتب أو ورق يحتوي على سور وآيات من القرآن الكريم والسنة المطهرة، فأنكر عليه شخص بالقول، فرد عليه، فقال، أي الذي يضع البضاعة: لا بأس بهذا، ولا ضرر في ذلك. واستمر في عمله هذا، وقال: لا أجد غير هذا الورق، مع العلم أنه يقرأ ويكتب، وهذه ظاهرة شائعة عندنا، فما حكم الله تعالى في هذا العمل، وهل أسير في الشارع راكعًا، لجمع تلك الآيات والسور، التي كثر رميها على الأرض، في حين أن الناس تسخر، فماذا أفعل لإزالة هذا المنكر المنتشر؟

فأجابت اللجنة: «أولاً: لا يجوز أن يضع المسلم متاعه أو حاجته في أوراق كتب فيها سور وآيات من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية، ولا أن يلقي ما كتب فيه ذلك في الشوارع والحارات والأماكن القذرة، لما في ذلك من الامتهان وانتهاك حرمة القرآن والأحاديث النبوية وذكر الله، ودعوى أنه لا يجد غير هذا الورق دعوى يكذبها الواقع، فإن وسائل صيانة المتاع كثيرة، وفيها غنية عن استعمال ما كتب فيه القرآن والأحاديث النبوية أو ذكر الله، وإنما هو الكسل وضعف الدين.

ثانيًا: يكفيك للخروج من الإثم والحرج، أن تنصح الناس بعد استعمال ما ذكر فيها فيه امتهان، وأن تحذرهم من إلقاء ذلك في سلات

القمامة وفي الشـوارع والحارات ونحوها، ولسـت مكلفًا بما فيه حرج عليـك من جعل نفسـك وقفًا على جمع ما تناثر من ذلك في الشـوارع ونحوها، وإنما ترفع من ذلك ما تيسر منه دون مشقة وحرج»(١).

وسـئل الشـيخ عبدالعزيـز ابـن بـاز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عـن حكـم وضـع الصحف، التي تشتمل على آيات سفرة للطعام، فأجاب:

«الحمـد لله رب العالـمين، والصلاة والسـلام على سـيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فـإن القـرآن كلام الله تبـارك وتعـالى، أنزلـه على عبده ورسـوله محمـد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ليكون هدىً ونورًا للعالـمين إلى يوم القيامة، وقد أكـرم الله تعالى صـدر هذه الأمة بحفظـه في الصـدور، والعمل به في جميع شـؤون الحياة، والتحاكم إليه في القليل والكثير، ولا يزال فضل الله سـبحانه ينزل على بعض عباده، فيعطون القرآن حقه من التعظيم والتكريم حسًّـا ومعنى، ولكنْ هناك طوائف كبـيرة وأعداد عظيمة، ممـن ينتسـب إلى الإسـلام حرمت مـن القيام بحـق القـرآن العظيم، ومـا جـاء عـن الرسـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأخشـى أن ينطبـق بحق على كثـير منهم، قولـه تعـالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠]، إذ أصبـح القـرآن لـدى كثير منهـم مهجورًا،

(١) فتاوى اللجنة الدائمة، فتوى (رقم ٦٩٠١).

وهجروا تلاوته، وهجروا تدبره والعمل به، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد غفل كثير منهم عما يجب عليهم من تكريم كتاب الله، وحفظه إذا قصروا في مجال الحفظ والتدبر والعمل، كما لم يقوموا بما يجب من التعظيم والتكريم لكلام رب العالمين، ولقد عمت بلاد المسلمين المنشورات والصحف والمجلات، وكثيرًا ما تشتمل على آيات من القرآن الكريم في غلافها أو داخلها، لكن قسمًا كبيرًا من المسلمين حينما يقرءون تلك الصحف يلقونها، فتجمع مع القمائم، وتوطأ بالأقدام، بل قد يستعملها بعضهم لأغراض أخرى، حتى تصيبها النجاسات والقاذورات، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في كتابه الكريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠].

والآية دليل على أنه لا يجوز مس القرآن إلا إذا كان المسلم على طهارة، كما هو رأي الجمهور من أهل العلم، وفي حديث عمرو ابن حزم الذي كتبه له رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن لا يمس القرآن إلا طاهر**»[1].

(١) الموطأ رواية يحيى الليثي، باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن (١/ ١٩٩) دار إحياء التراث، ت: محمد فؤاد عبدالباقي.

ويـروى عن حكيم بن حزام أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر**»[١].

وروي عـن سـلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنـه قـال: «لا يمـس القـرآن إلا المطهرون». فقرأ القرآن ولم يمس المصحف، حين لم يكن على وضوء.

وعن سعد: «أنه أمر ابنه بالوضوء لمس المصحف».

فـإذا كان هذا في مس القرآن العزيز، فكيف بمن يضع الصحف التـي تشـتمل على آيـات من القـرآن سـفرة لطعامه، ثم يرمـي بها في النفايات مع النجاسـات والقاذورات، لا شك أن هذا امتهان لكتاب الله العزيز وكلامه المبين.

فالواجـب عـلى كل مسـلم ومسـلمة أن يحافظوا عـلى الصحف والكتـب وغيرهـا، مما فيه آيات قرآنية أو أحاديـث نبوية، أو كلام فيه ذكر الله، أو بعض أسـمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيحفظها في مكان طاهر، وإذا اسـتغنى عنها دفنهـا في أرض طاهرة أو أحرقها، ولا يجوز التسـاهل في ذلـك، وحيـث إن الكثير مـن الناس في غفلة عن هـذا الأمر، وقد يقـع في المحـذور جهلًا منه بالحكـم، رأيت كتابة هـذه الكلمة تذكيرًا وبيانًا لما يجب على المسلمين العمل به، تجاه كتاب الله وأسمائه وصفاته وأحاديـث رسـوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحذيـرًا مـن الوقـوع فيـما يغضب

---

(١) الطبراني في الأوسط (٣٣٠١).

الله، ويتنافى مع مقام كلام رب العالمين، والله سبحانه المسؤول أن يوفقنا والمسلمين جميعًا لما يحبه ويرضاه، وأن يعيذنا جميعًا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن يمنحنا جميعًا تعظيم كتابه وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعمل بهما، وصيانتهما عن كل ما يسيئ إليهما من قول أو فعل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم»(١).

المظهر الخامس: تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيم من عظمه الله عَزَّوَجَلَّ، وأمر بتعظيمه وتوقيره من البشر، ألا وهو سيدهم وإمامهم نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدالله ورسوله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨، ٩]. وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١، ٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

(١) مجلة البحوث الإسلامية (٦/ ٢٨٩).

وأثنى سبحانه على المعظمين له بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والآيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في الأمر بتوقيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرته، والوقوف عند أمره ونهيه، واتباع سنته كثيرة ومتنوعة، وما ذاك إلا بما خصه به من وحيه ورسالته، وبما حباه الله عَزَّوَجَلَّ من الصفات والخصائص والأخلاق العظيمة، التي هيئه الله عَزَّوَجَلَّ بها لحمل رسالته وإبلاغها للعالمين، ويكفينا من هذه الصفات ثناء الله عَزَّوَجَلَّ له بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقد عظم الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمر بتعظيمه في مواطن وأحوال عديدة وكثيرة، منها ما ذكرنا من الآيات، ومنها أنه رفع ذكره، فقرن اسمه باسمه في الأذان والصلاة والدعاء، وغيرها من العبادات والأذكار، وأمرنا بالصلاة والسلام عليه واتباعه، وهذا يدل على علو منزلته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدره عند ربه.

وقد ذكر الشيخ (علي بادحدح) جوانب عشرة من وجوه العظمة الذاتية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنقلها هنا على سبيل الاختصار:

الوجـه الأول: أخـذ العهـد لـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عـلى جميـع الأنبيـاء والرسـل باتباعه لو بعث فيهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

الوجـه الثاني: إعلام أهل الكتـاب بصفته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل مبعثه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

الوجـه الثالث: ختم النبوات بنبوته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال سـبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

الوجـه الرابـع: عموم رسـالته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للثقلين، قـال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الوجـه الخامس: القسـم الرباني بحياتـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

الوجه السـادس: رفع ذكره وإعلاء شـأنه، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فقلما يذكر الله عَزَّوَجَلَّ إلا ويذكر اسمه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

الوجـه السـابع: التكفـل الربـاني بحفظـه وكلاءته، قـال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

الوجه الثامن: ربط الإيمان به وطاعته بالإيمان بالله تعالى وطاعته، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

الوجه التاسع: توقير الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذاته باسم النبوة والرسالة: (يا أيها النبي) (يا أيها الرسول).

الوجه العاشر: دفاع الله عَزَّوَجَلَّ عنه، وتولي الرد على شبهات المشركين، والذب عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه سبحانه، ونهي المؤمن عن أي أذية مهما صغرت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

إن تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقديره حق قدره، إنما هو من تعظيم الله تعالى وإجلاله. وأسوق فيما يلي بعض المظاهر واللوازم التي يقتضيها تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أولا: الشوق إليه ومحبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محبة، تتقدم على محبة النفس والأهل والولد والتعظيم أعلى منزلة من المحبة، لأن المحبوب لا يلزم أن يكون معظمًا كالولد يحب والده محبة تدعوه إلى تكريمه دون تعظيمه. والمقصود أن التعظيم الذي لا تصحبه المحبة هو تعظيم زائف، كمن يعظم الجبابرة خوفًا منهم لا حبًّا لهم. أما تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو تعظيم من حوى كل صفات الخير ومعالي

الأخلاق والشمائل، وتعظيم من كان سببًا في نجاتنا، وإنقاذ البشرية من ظلمات الشرك والجهل والخرافة إلى نور التوحيد والإسلام، فهدى الله به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وأرشد به من الغواية، وعرف الناس بغاية خلقهم وحالهم بعد القدوم على ربهم، فكيف لا يحب ولا يعظم من هذه سجاياه وأخلاقه وأفضاله، ولقد ضرب السلف رحمهم الله تعالى أروع الأمثلة في حب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمه.

- لما احتضر بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت امرأته: واحزناه، فقال: واطرباه! غدًا نلقى الأحبة.. محمدًا وحزبه(١).

- ولما خرج أهل مكة بزيد بن الدثنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الحرم ليقتلوه، قال له أبو سفيان، ولم يكن قد أسلم بعد: أنشدك الله! أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك يُضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي(٢).

- ولما قدم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشام، سأله المسلمون أن يسأل بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤذن لهم، فسأله، فأذن يومًا، فلم يُر يومٌ كان أكثر باكيًا من يومئذ، ذكرًا منهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥٩).
(٢) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٠٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥٧).

- وقال صاحب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذكر عن مالك أنه سئل عن أيوب السختياني؟ فقال: ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أوثق منه. وقال عنه مالك: وحج حجتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتبت عنه.

وذكر مالك عن محمد بن المنكدر، وكان سيد القراء: لا نكاد نسأله عن حديث أبدًا إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اصفر لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زمانًا، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليًا، وإما صامتًا، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله.

وكان عبدالرحمن بن القاسم يذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فينظر إلى لونه، كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولقد رأيت الزهري، وكان لَمِنْ أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه»[1].

---

(١) الشفا من حقوق المصطفى (ص٥٩٨).

وكان الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا ذكر حديث حنين الجذع وبكائه بكى، وقال: «يا معشر المسلمين! الخشبة تحن إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شوقًا إلى لقائه؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه»(١).

- وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يكره للرجل أن يقول: قال الرسول. ولكن يقول: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تعظيمًا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٢).

- وكان مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشد تعظيمًا لحديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «فكان إذا جلس للفقه جلس كيف كان، وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيب، ولبس ثيابًا جددًا، وتعمم، وقعد على منصته بخشوع وخضوع ووقار، ويبخر المجلس من أوله إلى فراغه، تعظيمًا للحديث»(٣).

- وكان عبدالرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر الحاضرين بالسكوت، فلا يتحدث أحد، ولا يُبرى قلم، ولا يبتسم أحد، ولا يقوم أحد قائمًا، كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة؛ فإذا رأى أحدًا منهم تبسم أو تحدث لبس نعله وخرج»(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٠).
(٢) ذم الكلام، للهروي (ص٢٢٥).
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ١٩٦).
(٤) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٠١).

ثانيًا: ومن لوازم تعظيمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبته، اتباع سنته ونصرتها، والتسليم لما جاء به، وتعظيم شريعته، وكل ما صح من أقواله وأوامره ونواهيه، والانقياد لها. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وحذر سبحانه من الاعتراض على شريعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذه الآية: «هذا متضمن للأدب مع الله تعالى، ومع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتعظيم له، واحترامه وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله متبعين لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع أمورهم، وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادة

الأبديـة، والنعيـم السرمدي، وفي هذا النهي الشـديد عن تقديم قول غير الرسـول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجـب اتباعها وتقديمها على غيرها كائنا ما كان»(١)، ومما يتنافى مع تعظيمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحداث بدعة في الدين لم يشرعها، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٢).

ثالثًا: عدم رفع الصوت فوق صوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سـواء كان ذلك في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بعد مماته في مسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، ولما نزلت هـذه الآية، قـال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يـا رسـول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار(٣).

وروى البخاري عن السـائب بن يزيد قال: كنت نائمًا في المسجد فحصبنـي رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فاءتني بهذيـن، فجئتـه بهما، قال: من أنتـما؟ أو: من أين أنتـما؟ قالا: من أهل الطائـف، قال: لو كنتما من أهل البلـد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٤).

(١) تفسير السعدي (ص٧٩٩).
(٢) مسلم (١٧١٨).
(٣) رواه البزار في مسنده (٢٢٥٧).
(٤) البخاري (٤٧٠).

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته، لأنه محترم حيًّا وميتًا.

ومما يدخل في هذه الآداب مخاطبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومناداته بوصف النبوة والرسالة لا باسمه الصريح، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾ [النور: ٦٣]، فلا يقال: (يا محمد) عند ندائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو (يا محمد بن عبدالله) كما يقول ذلك الناس بعضهم لبعض، وإنما يقال: يا رسول الله، يا نبي الله، وذلك لشرفه وفضله، وتميزه عن غيره.

ومما أدخله بعض أهل العلم في مدلول الآية بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رفع الصوت فوق سنته، وتقديم آراء الرجال وأقوالهم عليها، فإن هذا بمثابة رفع الصوت فوق صوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رابعًا: الثناء عليه عند ذكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أثنى عليه ربه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقد شرع الله عَزَّوَجَلَّ الصلاة والسلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواطن كثيرة من العبادات: كالتشهد في الصلاة، وصلاة الجنازة، والخطبة، وبعد الأذان، وعند استفتاح الدعاء، وغيرها من المواطن وقد جاء في السنة: الحث على الإكثار من الصلاة والسلام عليه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا**»(١) وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ علي**»(٢).

وأفضل صيغ الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك التي علمها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه، عندما سألوا: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «**قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(٣).

خامسًا: محبة آله وأزواجه وأصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإجلالهم، وتقديرهم، والذب عنهم.

إن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعظيم وإجلال من اختارهم الله عَزَّوَجَلَّ ليكونوا من آله وأزواجه وأصحابه، لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يختار للطيبين إلا الطيبين، قال سبحانه: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]. وقال سبحانه عن آله وأزواجه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

---

(١) مسلم (٢٨٤).
(٢) الترمذي (٣٥٤٥)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦).
(٣) البخاري (٤٧٩٧).

وقال عن أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال سبحانه في الثناء عليهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره عند هذه الآية: «ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في رواية عنه- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء على ذلك»(١).

وكما أن النبوة والرسالة اصطفاء لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فإن أصحاب الرسل اصطفاء.

روى البزار في مسنده من حديث سعيد بن المسيب عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النبيين والمرسلين**»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٢) ت: سامي السلامة.
(٢) الإصابة (١/ ١٢)، وقال: سنده رجاله موثوقون.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه»(١).

وقد علم الله سبحانه ما في قلوبهم من الإيمان واليقين فأثابهم عليه، قال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]. والقرآن فيه الآيات الكثيرة في تزكية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكذلك في أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التزكية لهم والثناء عليهم الشيء الكثير، من أهمها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»(٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**»(٣).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يأتي على الناس زمان يبعث منهم البعث، فيقولون: انظروا هل تجدون فيكم أحدًا من أصحاب**

---

(١) مسند أحمد (٦/ ٨٤ رقم٣٦٠٠)، وحسنه ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص٦٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤٢٨ رقم٨٣٢): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه السخاوي، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ١٧).

(٢) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٤٦١٠).

(٣) مسلم (٢٥٣١).

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيوجد الرجل فيفتح لهم به، ثم يبعث البعث الثاني، فيقولون: هل فيهم من رأى أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيفتح لهم به، ثم يبعث البعث الثالث، فيقال: انظروا هل ترون فيهم من رأى من رأى أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ثم يكون البعث الرابع، فيقال: انظروا هل ترون فيهم أحدًا رأى من رأى أحدًا رأى أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيوجد الرجل فيفتح لهم به» (١).

ويصفهم الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «أولئك أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأحسنها بيانًا، وأصدقها إيمانًا، وأعمها نصيحة، وأقربها إلى الله وسيلة» (٢).

ويقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأدناهم صحبة أفضل من القرن الذين لم يروه، ولو لقوا الله بجميع الأعمال» (٣).

فسحقًا وتبًّا لأهل الرفض، ومن اتبعهم في سبهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكفيرهم، إنهم بذلك يكذبون كلام الله عَزَّ وَجَلَّ وتزكيتهم، ويكذبون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الثناء عليهم، والنهي عن سبهم، ويتهمونه بسوء التربية، وفشله فيها، حيث لم يتخرج على يديه إلا خمسة أو سبعة من الأبرار، وما سواهم كفروا. الأمر

---

(١) البخاري (٢٨٩٧)، مسلم (٢٥٣٢).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨)، ت: مشهور آل سلمان.
(٣) شرح أصول أهل السنة (١/ ١٦٠).

الـذي لا يرضونـه لأئمتهـم وشـيوخهم، فكيـف يرضونـه لرسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكفـى بتكذيبهم للقرآن والسـنة وسـوء أدبهم كفرًا مبينًا. ولقد كان السـلف رحمهم الله تعالى يتبرأون ممن يشتم أصحاب محمـد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بـل يأمـرون بالهجرة مـن المكان الذي يسـب فيه الصحابة، إن لم يمكن الإنكار والتغيير.

فقـد خرج جرير بـن عبدالله البجلي، وعدي بـن حاتم، وحنظلة الكاتب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الكوفة حتى نزلوا قرقيساء، وقالوا: لا نقيم ببلدة يشتم فيها عثمان ابن عفان[١].

وباع محمد بن عبدالعزيز التيمي داره، وقال: لا أقيم ببلدة يشـتم فيها أصحاب رسول الله[٢].

ولـما أظهـر ابن الصاحـب الرفض ببغـداد سـنة (٥٨٣) هـ جاء الطالقـاني إلى صديـق فودعه، وذكر أنه متوجـه إلى بلاد قزوين، فقال صديقـه: إنك ههنا طيب، وتنفع الناس، فقال الطالقاني: معاذ الله أن أقيم ببلدة يجهر فيها بسب أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثم خرج من بغداد إلى قزوين، وأقام بها إلى أن توفي بها[٣].

---

(١) الإبانة الصغرى (ص١٦٤).
(٢) المصدر نفسه (ص١٦٤).
(٣) طبقات السبكي (٦/ ١١).

وعن فرات بن السائب قال قلت لميمون بن مهران: أبو بكر وعمر أفضل أم علي، قال: فارتعد حتى سقطت عصاه من يده. وقال: ما كنت أرى أن أعيش إلى زمان يعدل بهما. رأس الإسلام ورأس الجماعة(١).

ومن تعظيم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ محبتهم، والذب عنهم، والترضي عليهم، والسكوت عما شجر بينهم، والاعتراف بفضلهم على الناس بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث جاهدوا في الله حق جهاده، وأوصلوا الإسلام للبشرية، وهم الواسطة بين الناس وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم نقلة الكتاب والسنة، والمبينين لهما بفهمهم الصحيح لمن بعدهم، ولولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ سخرهم واصطفاهم لإبلاغ الكتاب والسنة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعلمهم وجهادهم، لما نعمت البشرية بدين الإسلام بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك فإن من سب الصحابة ورماهم بالكفر والردة أو الفسق، فإن مضمون ذلك اتهام نقلة الكتاب والسنة، وأنهم كفار أو فسقة، وبذلك يقع الشك في القرآن والأحاديث، لأن الطعن في الناقل والحامل طعن في المنقول والمحمول.

---

(١) تاريخ دمشق (٣٠/ ٤٢).

تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الغلو والجفاء:

الناس في تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طرفان مذمومان ووسط محمود، والمحمود هو من راعى الحقوق السابقة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظمه التعظيم الذي أمر به الله عَزَّوَجَلَّ، دون أن يغلو فيه، ويرفعه فوق مقام العبودية لله تعالى، فهم يشهدون أن محمدًا عبدالله ورسوله. فكونه (عبدالله) يمنع من رفعه إلى مقام الألوهية، وكونه (رسول الله) يمنع من إهدار حقوقه الرسالية أو معاملته كسائر الناس.

وأما الطرفان المذمومان فهما:

الأول: الجفاة: وهما الذين أساءوا الأدب مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يقم في قلوبهم تعظيمه، وتعظيم أقواله وشرعه، ولم يقوموا بالمظاهر السابق ذكرها من مظاهر تعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: الغلاة: وهم الذين غلوا في تعظيمهم لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاءوا بصور من التعظيم لم يأذن بها الله عَزَّوَجَلَّ، ولا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل رفعوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زاعمين تعظيمه إلى رتبة الألوهية، وجاءوا بصور من العبادات المبتدعة المخترعة، لم يأذن بها الله عَزَّوَجَلَّ، زاعمين أنهم يعظمون فيها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فمثل هؤلاء الغلاة هم في الحقيقة يسيئون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويؤذونه بارتكاب ما نهى عنه من البدع والتحذير من الغلو فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال:

«**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، ولكن قولوا عبدالله ورسوله**»(١).

ويبلغ الحد في التنفير من الغلو في ذاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٢)، يحذر ما صنعوا.

ولما همَّ طائفة من الناس بالغلو فيه، فقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، قال لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان**»(٣)، ويلحق بالغلو فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحلف والإقسام به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه من التعظيم الذي لا يصرف إلا لله وحده، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(٤).

وقد وقع في هذه الأمة ما نهى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث غلا فيه أناس حتى جعلوه في مرتبة الألوهية والربوبية:

- فنسبوا إليه ما لا يليق إلا بالخالق، وصنعوا به كما صنع النصارى بالمسيح، غير أنهم لم يقولوا: هو ابن الله، لكنهم نسبوا

(١) البخاري (٣٤٤٥).
(٢) البخاري (١٣٣٠)، مسلم (٥٢٩).
(٣) مسند أحمد (١٣٥٢٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩٧).
(٤) البخاري (٢٦٧٩)، مسلم (١٦٤٦).

إليـه: تصريف الكون، وعلـم الغيب، وهذا إنـزال له في مرتبة الألوهية، وإن لم يقولوا: إنه الله؛ فإن العبرة بالمعاني والحقائق.

- كـما أنهم ابتدعوا له عيـدًا، يحتفلون فيه بمولده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كابتـداع النصـارى عيـد الميـلاد للسـيد المسـيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم يفعله، ولم يأمر به عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما لم يفعله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يأمر في حق نفسه الشريفة.

لقد اتبع طائفة من المسـلمين سنن اليهود والنصارى حذو القُذة بالقُـذة، حتـى لـو دخلـوا جحر ضـب لدخلـوه، كما أخـبر الصادق المصدوق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نعم! النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف البشرية، وسـيد ولد آدم، وخليل الله تعـالى، وأعـلى النـاس منزلـة يـوم القيامـة، وفي الجنة، وهـو إمام الأنبياء والمرسـلين، لا يبلغ مقامه أحد من البشر، غير أنه تحت سقف العبوديـة، دون مرتبـة الألوهية، وقوله: «**إنما أنا عبـد فقولوا: عبدالله ورسوله**» تقرير لهذه الحقيقة، وإبطال لدعاوى فريقين.

الأول: الغـالي، الـذي رفعه عن مرتبـة العبودية، وذلـك بقوله: «**فقولوا: عبدالله**».

والثـاني: الجافي، الـذي عامله كسـائر الناس، فلم يميـزه بالمرتبة العالية، وذلك بقوله: «**ورسوله**».

قـال الله تعـالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وبعد هذه الآيات والأحاديث، فإنه لسائل أن يسأل:

هل عظم الرسـول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حلف به مع أنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقـول: «**من كان حالفًـا فليحلف بالله أو ليصمـت**»[(١)]، ويقول: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[(٢)]؟!

وهل عظمه من استغاث به، مع أنه بشر لا يملك من أمره شيئا؟! أليـس هذا تنكرًا لمحبته، وتعديًا لشرعه، وعصيانًا لأمره؟ حيث قال: «**لا تطـروني كـما أطرت النصـارى ابن مريـم، فإنما أنا عبـده، فقولوا عبدالله ورسوله**»[(٣)]؟!

وهـل مـن تعظيمـه الابتـداع في دينـه، والزيـادة في شريعتـه من التمسـح بحجرته أو الاحتفال بمولده، بعد اتفاقنا على نصحه لأمته، ودلالتها على كل حسن؟! فأي حسن في عمل احتفالات ساعات أو أيام، ثم التقصير والإهمال في سائر العام؟!

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه أبو داود (٣٢٥١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٧٨٧).
(٣) سبق تخريجه.

وأي حسن في الاحتفال بزمن توفي فيه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟! وأي حسن في مشابهة دين النصارى المفتونين بالاحتفالات؟!

وأي حسن في عمل لم يشرعه الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يفعله أنصاره وحماة دينه وحملة رسالته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ؟ أليسوا أصدق الناس حبًّا له؟!

أليس فقه الراشدين وفهمهم وسنتهم مما أوصانا به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قائلًا: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ**»(١)؟!

أليس فعل المولد مخالفة لأمره: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»(٢)؟!

فأي تعظيم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الموالد التي صارت مركبًا للمبتدعين وحجة للبطالين، أليس في بدعة المولد- بعد هذا- تقصير في حق حبيبنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيذاء له بابتداع أمر لم يأذن بشرعه؟

لقد أرشدنا عليه الصلاة والسلام إلى الطريق الشرعي في تعظيم يوم مولده ومبعثه، وذلك بصيام يوم الإثنين من كل أسبوع، حيث قال للذي سأله عن صومه ليوم الإثنين: «**ذلك يوم ولدت فيه وبعثت فيه**»(٣).

---

(١) أبو داود (٤٦٠٩) وصححه الألباني في المشكاة (١٦٥)، ورواه أحمد (١٧١٤٤).
(٢) أبو داود (٤٦٠٩) وصححه الألباني في المشكاة (١٦٥)، ورواه أحمد (١٧١٤٤).
(٣) مسلم (١١٦٢).

اللهم اجعلنا من المعظمين لرسولك صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التعظيم الذي أذنت فيه، واجعلنا من المتبعين لسنته، وتوفنا عليها.

المظهر السادس: تعظيم قدر الصلاة

إن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيم فرائضه وواجباته، وإن من أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين فريضة الصلاة، التي هي سمة الإيمان، وهي العبادة الكبرى لله عَزَّوَجَلَّ، ومن عظمتها أن فرضها الله عَزَّوَجَلَّ على هذه الأمة من فوق سبع سماوات، حينما عرج بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى ملكوت السموات، وهي عمود الإسلام، وعلامة الإيمان والإسلام. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة المشرفة في مواطن كثيرة، تارة بذكر فضلها، وتارة بالثناء على أهلها، وتارة بذكر ثمارها، وتارة بالأمر بأدائها كما يريد الله عَزَّوَجَلَّ من إقامة أركانها وواجباتها، وخشوعها والمحافظة عليها في أوقاتها، وتارة بذكر العقوبات المترتبة على تركها أو التكاسل عنها، وهي أدلة كثيرة مفصلة في الكتاب والسنة تدل على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لقدرها، وعلو شأنها وشأن أهلها، وليس المقام هنا مقام التفصيل في هذه الأدلة، فهي من الشهرة والاستفاضة بحيث لا نحتاج إلى ذكرها وتكرارها، وإنما المقصود هنا بيان عظمة قدر الصلاة، وأن تعظيمها من تعظيم من شرعها، وهو الله جل جلاله.

ومن عظيم شأنها أنها أول ما يحاسب العبد عنه يوم القيامة، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله**»(١).

ونقل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الصلاة قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك، وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة: كحظ القلب الخراب من ذلك»(٢).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، «فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى، وتكبيره وتعظيمه والخشوع له، وقلة رغبتهم فيه»(٣).

ولو تأملنا أركان الصلاة وواجباتها وسننها، وما يسبقها من الاستعداد لها بالوضوء والطهارة، وما فيها ويتبعها من الأذكار لرأيناها كلها تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ وتكبيرًا، ومن ذلك قول: (الله أكبر) في استفتاحها، والتنقل بين أركانها. والتكبير في حقيقته إنما هو تعظيم

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٩٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ٢٣٨).
(٢) الصلاة، لابن القيم (ص١٧١).
(٣) المصدر نفسه (ص١٧٠).

لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا أحد أكبر منه سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله، ومن ذلك ما تتضمنه أذكار الركوع والرفع منه، وأذكار السجود والجلسة بين السجدتين، والتشهد الأول والأخير من التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ، والثناء عليه بما هو أهله من الإجلال والتقدير.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا الركوع في الصلاة: «ثم يرجع جاثيًا له ظهره خضوعًا لعظمته وتذللاً لعزته، واستكانة لجبروته، مسبحًا له بذكر اسمه (العظيم). فنزه عظمته عن حال العبد وذله وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذل والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأطأ رأسه، وطوى ظهره، وربه فوقه يرى خضوعه وذله، ويسمع كلامه، فهو ركن تعظيم وإجلال، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**»[1][2].

وعن رفع اليدين في الصلاة عند الدخول فيها، وعند الركوع والرفع منه، يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما سأل: ما معنى رفع اليدين؟ قال: «تعظيم الله واتباع سنة نبيه»[3].

ولتعظيم قدر الصلاة في قلب المؤمن علامات ومظاهر من أهمها:

أولًا: محبتها والشوق إليها وانشراح الصدر بأدائها:

(١) سبق تخريجه.

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٣٠).

(٣) انظر: عمدة القاري (٩/ ٣).

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حبب إليَّ من الدنيا: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(١).

«وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر صلى»(٢)، وكان يقول لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أرحنا بها يا بلال**»(٣).

- ويقول عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما دخل وقت صلاة حتى أشتاق إليها، وما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء»(٤).
- ولما نعي إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخوه قثم وهو في سفر استرجع، ثم تنحى عن الطريق وأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم مشى إلى راحلته، وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(٥) [البقرة: ٤٥].
- وقد ذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة: «**رجل قلبه معلق في المساجد**»(٦)(٧) أي مشتاق إلى الصلاة وطول المكوث في المساجد.

---

(١) أحمد (١٤٠٣٧) والنسائي (٣٩٤٩).
(٢) مسند أحمد (٢٣٢٩٩)، أبو داود (١٣٢١).
(٣) أبو داود (٤٩٨٧)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٥٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٤).
(٥) تفسير ابن كثير عند آية البقرة (٤٥).
(٦) البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).
(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٥).

إذن محبة الصلاة والشوق إليها من علامات تعظيمها الدالة على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، لأن كل معظم محبوب فإن النفس تشتاق إليه وتتلذذ به، وعلى العكس من ذلك، حينما يقل تعظيم الشيء أو ينعدم، فإن محبته والشوق إليه تنعدم، بل قد يحل محلها الكره والتثاقل والملل، كما هو شأن المنافقين، ومن في قلوبهم مرض، حيث وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال سبحانه عن الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ثانيًا: التهيؤ لأدائها يتحقق شروطها من طهارة القلب والبدن وطهارة الجسم بالوضوء والفم بالسواك، وطهارة اللباس والبقعة من النجاسات، وتكميل ذلك كله، كما ورد في هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوضوء والطهارة وستر العورة، وأخذ الزينة المستطاعة في الهيئة واللباس، للوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفي أعراف البشر وعاداتهم أنه في حال الدخول على العظماء من أهل الدنيا، فإن ذلك يكون في حالة من الحشمة والزينة والنظافة، والله عَزَّوَجَلَّ العظيم الكبير أحق بذلك من المخلوق الضعيف الفاني، فالطهارة والزينة والعناية بهما تدل على تعظيم قدر الصلاة المتضمنة لتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ.

ثالثًا: التبكير لها مع الجماعة في المسجد، والمحافظة على السنن الرواتب ما قبلها وما بعدها، والحزن على فواتها مع الجماعة أو فوات بعضها، كل هذا يدل على تعظيم قدر الصلاة، وعلى العكس من ذلك، فإن التفريط في حضور الجماعة في المسجد، أو فوات بعض الصلاة مع الجماعة أو التفريط في السنن الرواتب دون حزن وتألم من ذلك، فإن هذا يدل على ضعف شأن الصلاة في النفس، وقلة تعظيمها في القلب، ولقد ضرب السلف أحسن الأمثلة في محافظتهم على صلاة الجماعة والتبكير لها، فمن ذلك:

- عن نافع أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا ليلته. أي لتدارك ما فاته من مضاعفة أجر الجماعة.
- قال محمد بن المبارك الصوري: كان سعيد بن عبدالعزيز إذا فاتته صلاة الجماعة بكى(١).
- وقال يحيى بن معين: إن يحيى بن سعيد لم يفته الزوال في المسجد أربعين سنة(٢).
- وقال وكيع بن الجراح: كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٤).
(٢) المصدر نفسه (٩/ ١٨١).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٢٨).

- قال علي بن المديني: ما رأيت أخوف لله بن بشر بن منصور. قال غسان حدثني ابن أخي بشر قال: ما رأيت عمي بشر بن منصور فاتته التكبيرة الأولى(١).

- وروى منصور عن إبراهيم التيمي قال: إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه، قال بكير بن عامر: كان لو قيل له: قد توجه إليك ملك الموت. ما كان عنده زيادة عمل(٢).

رابعًا: المحافظة على إقامتها بأركانها وواجباتها وسننها، كما جاء في صفة صلاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٣)، فإن هذا يدل على العناية بشأنها ومحبتها وتعظيمها، لا لأنها ثقل وحمل يراد أن يتخفف منه، كما هو شأن كثير منا في أدائهم للصلاة، وتفريطهم في واجباتها ومكملاتها، فالمعظم للصلاة لا يرى إلا مقيمًا لها، كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وكما صلاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من النصح والتعظيم لله عَزَّوَجَلَّ فيما فرضه وأوجبه.

خامسًا: المحافظة على أدائها بخشوع وطمأنينة وتدبر، لما يتلى فيها من القرآن، وما يذكر فيها من الأذكار والتسبيح والتحميد

(١) المصدر نفسه (٨/ ٣٦٠).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٦١)

(٣) ولمعرفة هذه الصفة يرجع إلى كتاب الصلاة لابن القيم وصفة صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للألباني.

والتعظيم والدعاء والثناء على الله عَزَّوَجَلَّ والتلذذ بذلك. إن لب الصلاة هو الخشوع. ولذتها حين يمتلأ القلب من المحبة والتعظيم والخوف والرجاء والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وهذه هي الصلاة التي تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وإلا فما قيمة حركات وأقوال لا تدبر فيها ولا معنى؟!

والخشوع في الصلاة دليل على عناية المصلي بصلاته، وتعظيمه لمن يقف بين يديه، وللسلف رحمهم الله تعالى مواقف وأمثلة رائعة في العناية بصلاتهم وخشوعهم فيها، أذكر هنا بعضها لعلنا نتأسى بهم فيها.

- كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبكي في الصلاة حتى لا يسمع الناس قراءته، ولما مرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرضه الذي مات فيه، قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه»[(١)].

- وهذا الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما طعنه المجوسي أبو لؤلؤة، وهو يصلي بالناس غلبه النزف حتى غُشي عليه، فأدخلوه بيته، فلم يزل في غشية حتى أسفر، فنظر في وجوه من حوله، فقال: صلى الناس؟ قالوا: نعم، فقال: «لا إسلام لمن ترك الصلاة»، ثم توضأ وصلى، وجرحه ينزف دمًا[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ٣٤٦).

- وقرأ مرة سورة يوسف وهو يؤم الناس في صلاة الفجر، فسمع نشيجه من وراء الصفوف(١).
- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، قال: «كانوا إذا قاموا في الصلاة أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يُقبل عليهم، فلا يلتفتون يمينًا ولا شمالا»(٢).
- وكان ابن الزبير إذا قام في الصلاة فكأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره، لا تحسبه إلا جذعًا أو حائطًا أو خشبة منصوبة لا تتحرك(٣).
- وكان علي بن الحسين إذا فرغ من وضوئه للصلاة، وصار بين وضوئه وصلاته، أخذته رعدةٌ ونفضةٌ، فقيل له في ذلك، فقال: «ويحكم، أتدرون إلى من أقوم، ومن أريد أن أناجي؟»(٤).
- قال أبو عبدالرحمن الأسدي: قلت لسعيد بن عبدالعزيز: يا أبا محمد، ما هذا البكاء الذي يعرض لك في صلاتك؟، قال: يا ابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟، قلت: يا عم لعل الله أن ينفعني، قال سعيد: ما قمت في صلاتي إلا مثلت لي جهنم(٥).

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) الدر المنثور (١٠/ ٥٤٢).
(٣) تاريخ دمشق (٢٨/ ١٧٠).
(٤) حلية الأولياء (٣/ ١٣٣).
(٥) تاريخ دمشق (٢١/ ٢٠٣).

- وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، ولقد انهدمت ناحية من المسجد، ففزع لها أهل السوق فما التفت. وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته، فإذا قام يصلي تكلموا، أو ضحكوا، علمًا منهم بأن قلبه مشغول عنهم، وكان يقول: إلهي، متى ألقاك وأنت راضٍ[(١)].
- وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه، حتى يميل يمنة ويسرة[(٢)].
- وكان المعلى بن منصور يومًا يصلي، فوقع على رأسه كورُ الزنابير فما التفت، وما انفتل حتى أتم صلاته، فنظروا، فإذا قد صار هكذا من شدة الانتفاخ[(٣)].
- وعن جعفر بن زيد أن أباه أخبره قال: خرجنا في غزوة إلى كابل، وفي الجيش صلة بن أشيم، فنزل الناس عند العتمة، فقلت: لأرمقن عمله، وأنظر ما يذكر الناس من عبادته: فصلوا العتمة ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، حتى إذا قلت هدأت العيون وثب، فدخل غيضة قريبًا منه، ودخلت في إثره، فتوضأ ثم قام يصلي، فافتتح وجاء الأسد حتى دنا منه، وصعدت في شجرة، قال: فتراه التفت أو عده جردًا

(١) حلية الأولياء (٢/ ٢٩١).
(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٣٦).
(٣) تاريخ دمشق (٥٩/ ٣٨٢).

حتى سجد، فقلت: الآن يفترسه فلا ينثني، فجلس ثم سلم، فقال: أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر. فولى، وإن له زئيرًا، أقول: تصدعت الجبال منه، فما زال كذلك يصلي، حتى لما كان عند الصبح جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار. ثم رجع فأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة ما الله به عليم، فلما دنوا من أرض العدو، وقال الأمير: لا يشذن أحد من العسكر، فذهبت بغلته بثقلها فأخذ يصلي، فقيل له: إن الناس قد ذهبوا. قال: دعوني أصلي ركعتين. قالوا: إن الناس قد ذهبوا. قال: إنما هما خفيفتان. قال فدعا ثم قال: إني أقسم عليك أن ترد عليَّ بغلتي وثقلها. قال: فجاءت حتى قامت بين يديه. قال: فلما لقيه العدو حمل هو وهشام بن عامر فطعنا بهم طعنًا وضربًا وقتلًا، قال: فكسرا ذلك العدو. وقالوا: رجلان من العرب صنعا هذا، فكيف لو قاتلونا؟! فأعطوا المسلمين حاجاتهم. فقيل لأبي هريرة: إن هشام بن عامر وكان يجالسه: ألقى بيده إلى التهلكة، وأخبر بخبره، وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا، ولكنه التمس هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧][(١)].

(١) تعظيم قدر الصلاة، للمروزي (ص٨٣٦).

- قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء، أو أن يلتفت، أو يقلب الحصى، أو يعبث بشيء، أو يحدث نفسه من شأن الدنيا، إلا ناسيًا ما دام في صلاته»(١).

سادسًا: ومن تعظيم شأن الصلاة الدال على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ: الأمر بها، وحث الناس عليها، ولا سيما الأهل والأولاد والأقربين، قال الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال سبحانه في ثنائه على إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥]، والأمر بالصلاة يشمل فرضها ونفلها، والأمر بها أمر بتعليمهم كل ما لا تتم إلا به، من الوضوء والتطهر لها، والعلم بأركانها وواجباتها وسننها، وتعليمهم ما يصلحها وما يفسدها.

المظهر السابع من مظاهر تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

تعظيم أسماء الله وصفاته الحسنى، فلا يحلف إلا بها، ولا يحلف بها على أمر كذب، لأن الحلف بالله تعظيم لله، ومن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في الحلف أن يبر بيمينه، إلا أن يكون معصية.

(١) المصدر نفسه (ص١٨٨).

ومن تعظيمها أن لا يرد أحدًا سأل بها، وأن يعاذ من استعاذ بها، إلا أن يكون في فعل محرم، أو ترك واجب، أو تعطيل حد من حدود الله عَزَّوَجَلَّ، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه...** » الحديث(١).

وقد كره كثير من العلماء كثرة الحلف بالله عَزَّوَجَلَّ، ولو كان الحالف صادقًا، لأن في ذلك وسيلة للحلف الكاذب، أو جعله عرضة لفعل الخير، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وينبغي للمحلوف له -تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه الحسنى- أن يقبل ويرضى ويصدق، لأن هذا من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك لما رواه ابن ماجه عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله**»(٢). إلا أن يكون الحالف بالله قد عرف منه الفجور والكذب، وبحلفه على ما يتيقن كذبه فيه، فإن هذا لا يدخل في الوعيد للعلم بكذبه وعدم تعظيم قلبه لله.

ومما يلحق بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته: أن لا يسأل بوجه الله عَزَّوَجَلَّ إلا غاية المطالب، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**»(٣).

(١) سنن أبي داود (١٦٧٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٦٩).
(٢) رواه ابن ماجه (٢١٠١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٠٨).
(٣) رواه أبو داود (١٦٧٣)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٢٩٨).

ومـن تعظيـم الله عَزَّوَجَلَّ تعظيـم الشـهادة بـه وبأسـمائه وصفاته، فلا يشـهد بشيء من ذلـك على كذب أو زور، قـال إبراهيم النخعي: «وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار».

ومـن تعظيـم الله عَزَّوَجَلَّ وجوب احترام أسـماء الله الحسـنى، لأن احترامهـا احترام لله عَزَّوَجَلَّ وتعظيم لله عَزَّوَجَلَّ، ومن ذلك أن لا يسـمى أحد باسم مختص بالله. وأسماء الله تنقسم إلى قسمين.

الأول: مـا لا يصـح إلا لله، فهذا لا يسـمى به غيره، وإن سـمي وجب تغييره، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثـاني: ما يصح أن يوصف به غير الله، مثل: الرحيم، والسـميع والبصـير، فـإن لوحظت الصفة منع من التسـمي بـه، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه عَلَمٌ محض.

عـن أبي شريـح، أنـه كان يكنى أبـا الحكم، فقال لـه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله هو الحكم، وإليه الحكم**»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «**ما أحسـن هذا! فـما لك مـن الولد؟**»، قلـت شريح، ومسـلم، وعبدالله. قـال: «**فمن أكبرهم؟**». قلت: شريح. قال: «**فأنت أبو شريح**»[1].

---

(١) أبو داود (٤٩٥٥)، وصححه الألباني.

ومن احترامها تنزيهها ورفعها عن الأماكن المهانة والقذرة، ولا سيما أوراق الصحف والمجلات والمقررات الدراسية، التي تشتمل على أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وقد حصل من كثير من الناس التساهل وعدم المبالاة بذلك، وهذا من ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب.

ومما يلحق بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته تعظيم ذمة الله عَزَّوَجَلَّ وذمة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ضمن وصاياه لأمراء الجيوش إذا أرسلهم لغزو الكفار، ومنها: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله..**» الحديث(١).

المظهر الثامن: تعظيم نصوص الكتاب والسنة وتلقيها بالقبول والتسليم

وهذه من أعظم علامات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وتوقيره وإجلاله، فما عظم الله سبحانه من استهان بنصوص الوحيين، وتجرأ على ردهما بهواه وتأويلاته الفاسدة. ومن عظم النصوص الشرعية وهابها واستسلم لها من دون أي شبهة يعارض بها خبر الله عَزَّوَجَلَّ وخبر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومن دون أي شهوة يعارض بها أمر الله عَزَّوَجَلَّ أو أمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومن دون معارضة لأحكام الله القدرية،

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

فـإن هذا هـو المعظم لله حقًّـا. قـال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الانعام: ١١٥]، أي صدقـًا في الأخبار وعدلاً في الأحكام. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

إن من أعظم ما يحدث مقام التسليم في النفس ويقويه؛ معرفة الله سبحانه، إذ التسليم في حقيقته ثمرةُ معرفة الله جَلَّوَعَلَا بأسمائه وصفاته، فمن عرف الله حق المعرفة كان له أطوع وأكثر تسليمًا، وبمقدار امتلاء القلب من معرفة الرب يكون التسليم له والخضوع، والسلامة من علل الحرج والضيق والانقباض، فإن التسليم لله فرع تعظيم الوحي أمرًا ونهيًا وخبرًا، وهذا التعظيم للوحي فرع تعظيم الرب جل جلاله، وهو ثمرة معرفته سبحانه، فمن عرف الله عظمه، ومن عظمه عظم أمره، ومن عظم الأمر أسلم له طواعية واختيارًا، يقول الإمام ابن القيم مبينًا هذه العلاقة الطردية بين معرفة الله وتعظيمه: «فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا وإجلالا»[(١)][(٢)].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥٥٣).
(٢) انظر: كتاب (ينبوع الغواية الفكرية) د. عبدالله العجيري (ص٩٤).

ولقد كان لسلفنا الصالح من الصحابة وسادات التابعين قصب السبق في تعظيم نصوص الكتاب والسنة: أخبارًا وأحكامًا، والانقياد لها، والإنكار على من خالفها أو عارضها، وأكتفي من ذلك بالنماذج التالية:

١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قالت: لما أسري بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن قال ذلك لقد صدق. قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟! فقال: نعم، إني لأصدقه ما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة. فلذلك سمي أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ(١).

٢) روى البخاري في صحيحه قال: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عبيدالله بن عتبة: أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذي يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر، ومشاورته: كهولاً كانوا

---

(١) المستدرك للحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٤٤٥٨)، ورواه الطبري في تهذيب الآثار (٧٤٧).

أو شبانًا. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله[1].

٣) ورضي الله عن الفاروق عمر، إذ يقول عن الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبلك ما قبلتك»[2].

يقول الحافظ ابن حجر: «وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما شرعه، ولو لم يعلم الحكمة فيه»[3].

---

(١) البخاري (٤٦٤٢).
(٢) البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).
(٣) فتح الباري (٣/ ٤٦٣).

٤) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم، ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاته قال: «**ما حملكم على إلقاء نعالكم؟**» قالوا: رأيناك ألقيت نعليك، فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ **أتاني، فأخبرني: أن فيهما قذرًا**»، أو قال: «**أذى**»(١).

٥) يحدث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحياء كله خير**»، فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب: أن منه سكينة ووقارًا لله، ومنه ضعفًا. قال: فغضب عمران حتى احمرت عيناه، وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعارض فيه. قال فأعاد عمران الحديث، وأعاد الرجل مقالته. فغضب عمران، حتى قال الحاضرون له: إنه منا يا أبا نجيد، إنه لا بأس به(٢). أي ليس ممن يتهم بنفاق أو زندقة.

٦) سألت امرأة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟ فقالت عائشة: أحرورية أنت؟ فقالت

(١) أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٦٥٧).
(٢) مسلم (٣٧).

المـرأة: لسـت حروريـة، ولكنـي أسـأل. قالـت: كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة»(١).

٧) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما نزل ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية(٢).

٨) عـن الـبراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أول مـا قدم المدينـة نزل على أجـداده، أو قـال أخواله من الأنصـار، وأنه صلى قبل بيت المقدس سـتة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبـه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معـه، فمر على أهل مسـجد وهم راكعون، فقال: أشـهد بالله لقد صليت مع رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبـل مكة. فداروا كما هم قبل البيت»(٣).

٩) عـن أنس بـن مالـك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كنت سـاقي القـوم يوم حرمـت الخمر في بيـت أبي طلحة، وما شرابهـم إلا الفضيخ: البسر والتمر، فإذا مناد ينادي، فقال: اخرج فانظر. فخرجت

(١) مسلم (٣٣٥).
(٢) أبو داود (٤١٠٣)، وصححه الألباني.
(٣) البخاري (٤٠).

فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت. قال: فجرت سكك المدينة، فقال لي أبو طلحة: اخرج فاهرقها فهرقتها»[(١)].

١٠) ولما عارض بلال بن عبدالله بن عمر قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**» برأيه وعقله، وقال: والله لنمنعهن. أقبل عليه أبوه عبدالله فسبه سبًّا ما سبه مثله، وقال: أحدثك عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقول: والله لنمنعهن[(٢)].

١١) ولما حدث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الفضة بالفضة ربا إلا هاء وهاء**» الحديث. قال معاوية: ما أرى بهذا بأسًا. يعني بيع آنية الفضة بالفضة متفاضلًا، غضب عبادة، وقال: تراني أقول قال رسول الله، وتقول: ما أرى بهذا بأسًا. لا أساكنك بأرض أنت بها أبدًا[(٣)]. وعلق ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ على ذلك، فقال: «ومعاوية لم يعارض النص بالرأي، وكان أتقى لله من ذلك، وإنما خصص عمومه، وقيد مطلقه بهذه الصورة وما شابهها، ورأى أن التفاضل في مقابل أثر الصنعة لم يدخل في الحديث. وهذا مما يسوغ فيه الاجتهاد، وإنما أنكر عليه عبادة مقابلته لما رواه بهذا الرأي، ولو قال له: نعم حديث رسول الله على الرأس والعين، ولا يجوز مخالفته بوجه، ولكن

(١) مسلم (١٩٨٠).
(٢) مسلم (٤٤٢).
(٣) سنن ابن ماجه (١٨)، وصححه الألباني.

هذه الصورة لا تدخل في لفظه، فإنه إنما قال: الفضة بالفضة مثلاً بمثل وزنًا بوزن. وهذه الزيادة ليست في مقابلة الفضة، وإنما هي في مقابلة الصنعة، ولا تذهب الصنعة هدرًا، لما أنكر عليه عبادة، فإن هذا من تمام فهم النصوص، وبيان ما أريد بها»(١).

١٢) عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلبس خاتمًا من ذهب فنبذه، فقال: «**لا ألبسه أبدًا**»، فنبذ الناس خواتيمهم»(٢).

وعند مسلم عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: «**يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده**»، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خذ خاتمك انتفع به. قال: لا والله لا آخذه أبدًا. وقد طرحه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣).

١٣) قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: «وقد قال رجل: تأخذ بهذا الحديث يا أبا عبدالله؟ فقال: متى رويت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا صحيحًا ولم آخذ به، فأشهدكم أن عقلي قد ذهب»(٤).

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ١٠٥٩).
(٢) البخاري (٥٨٦٧).
(٣) مسلم (٢٠٩٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٤).

١٤) وقال الحميدي: روى الشافعي يومًا حديثًا، فقلت: «أتأخذ به؟ فقال: خرجت من كنيسة، أو عليَّ زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا لا أقول به؟!»(١).

١٥) وقال الذهبي: وفي (مسند الشافعي) سماعنا، أخبرني أبو حنيفة ابن سماك، حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين: إن أحب أخذ العقل، وإن أحب فله القود**»(٢). قلت لابن أبي ذئب: «أتأخذ بهذا؟ فضرب صدري، وصاح كثيرًا، ونال مني، وقال: أحدثك عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقول: تأخذ به؟ نعم آخذ به، وذلك الفرض عليَّ، وعلى كل من سمعه. إن الله اختار محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الناس فهداهم به، وعلى يديه، فعلى الخلق أن يتبعوه: طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك»(٣).

١٦) وقال رجل للزهري: يا أبا بكر حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس منا من لطم الخدود، وليس منا من لم يوقر كبيرنا**»، وما أشبه هذا الحديث؟ أطرق الزهري ساعة، ثم رفع رأسه،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٤).
(٢) أبو داود (٤٥٠٤)، وأصله في البخاري (٦٨٨٠)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ١٤٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٤٢).

فقال: من الله عَزَّوَجَلَّ العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم(١).

١٧) ولما ذكر ابن المبارك حديث: «**لا يزني الزاني وهو مؤمن...** » فقال فيه قائل: «ما هذا؟ على معنى الإنكار. فغضب ابن المبارك، وقال: يمنعنا هؤلاء الأنان (كثير الكلام والشكوى) أن نحدث بحديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلما جهلنا معنى حديث تركناه! لا، بل نرويه كما سمعنا، ونلزم الجهل أنفسنا»(٢).

١٨) وكان أبو معاوية الضرير يحدث هارون الرشيد بحديث أبي هريرة: «**احتج آدم وموسى**»، فقال أحد الحاضرين: كيف هذا وبين آدم وموسى ما بينهما؟ قال: فوثب هارون، وقال: يحدثك عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعارض بكيف؟ فما زال يقول حتى سكت عنه.

يقول شيخ الإسلام أبو إسماعيل الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على هذه القصة: «هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقابلها بالقبول والتسليم والتصديق، ويُنكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مع من اعترض على

(١) السنة، للخلال (٣/ ٥٧٩).
(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٥٠٤).

الخبر الصحيح الذي سمعه بـ (كيف) على طريق الإنكار له والابتعاد عنه، ولم يتلقه بالقبول كما يجب أن يتلقى جميع ما يرد عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[١].

١٩) قال أبو عبدالله المؤذن: «كنت مع ابن أبي شريح في طريق غور، فأتاه إنسان في بعض تلك الجبال، فقال له: إن امرأتي ولدت لستة أشهر. فقال: هو ولدك، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الولد للفراش**»[٢] فعاوده، فرد عليه كذلك، فقال الرجل: أنا لا أقول بهذا! فقال: إن هذا هو الغزو، وسل عليه السيف. فأكببنا عليه، وقلنا: جاهل لا يدري ما يقول»[٣].

٢٠) قال الحافظ محمد بن طاهر: «سمعت أبا إسحاق الحبال يقول: كنا نقرأ على شيخ جزءًا، فقرأنا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[٤]. وكان في الجماعة رجل ممن يبيع القت، وهو علف الدواب، فقام وبكى. وقال: أتوب إلى الله من بيع القت. فقيل: ليس هو الذي يبيع القت، ولكنه النمام الذي ينقل الحديث من قوم إلى قوم، فسكن بكاؤه وطابت نفسه»[٥].

---

(١) عقيدة السلف، للصابوني (ص١١٧).
(٢) البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي، للذهبي (٢٧/ ٢٦٩). وسير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٢٧).
(٤) البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).
(٥) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣٣/ ٧٩).

٢١) ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في أثناء حديثه عن السلف الصالح: «وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان: أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وجده. فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق. وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم»[1].

٢٢) وقال البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار أو يرد الآثار أو يريد غير الآثار، فاتهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع»[2].

وبعد هذه النماذج المضيئة من تعظيم السلف لكلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والانقياد والتسليم لهما، أذكر هنا مقارنة بين رسالة صغيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ والموسومة (بالواسطية)، ضمنها أصول اعتقاد أهل السنة. وبين أشهر كتب الاعتقاد عند بعض الطوائف التي يعتمدونها حفظًا وتلقينًا وتدريسًا، وهي (أم البراهين)، ليظهر من هذه المقارنة مدى اتساع هوة الخلاف

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨).
(٢) شرح السنة، للبربهاري (ص٥١).

بين المنهجين: منهج من يعظم نصوص الشريعة، ويجعلها دليله وإمامه، وبين من يعظم كلام الفلاسفة وعلم الكلام، ويجعلها دليله، ويستهين بالنص والأثر.

من المنطقي أن يحوي الكتابين أو المتنين العشرات على الأقل من آيات الكتاب العزيز، والعديد من الأحاديث النبوية الصحيحة، لأنهما كتابان في الاعتقاد.

لكن الصدمة تقع عندما نعلم أن متن أم البراهين لم يحو ولا آية واحدة!! بل ولا حديثًا واحدًا!! بينما حُشِيَ بمقدمات منطقية!! أما متن العقيدة الواسطية فقد استدل فيه بأكثر من مئة وعشرين آية، وما يقارب الثلاثين حديثًا نبويًا، أغلبها من الصحيحين، وهذا مثال بسيط يبين مدى الفرق في طرق الاستدلال بين الفريقين، مع العلم أنهما بنفس الحجم تقريبًا.

ومن تأمل في الكثير من كلام ابن تيمية في الفروع وفي الأصول وجد تعظيم النص، والفزع إليه هو المقدم، وبعكس أهل الكلام، الذي صارت المقدمات المنطقية عندهم هي القطعية والنصوص الشرعية ظنية[1]!.

---

(١) انظر: مقال (ابن تيمية وإعادة القداسة للنص الشرعي) زياد العضيل، (موقع أرشيف ملتقى أهل الحديث) (٣/ ٣٧).

مكانة تعظيم نصوص الوحيين وأهميتها

تبرز أهمية تعظيم نصوص الكتاب والسنة في الأمور التالية:

١) إن في تعظيم كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحقيقًا لتعظيم الله تعالى في النفوس، لأن تعظيم قول القائل وإجلاله والتسليم له، هو من تعظيم قائله والمتكلم به، وهو الله سبحانه، فلم يعظم الله عَزَّوَجَلَّ من لم يعظم وحيه، وينقاد لأمره، بل لا إيمان لمن استهان بوحيه.

٢) في تعظيم نصوص الوحيين تحقيق لمقصد الشريعة من التنزيل. لأن من مقاصد الشريعة من التشريع أن يكون نافذًا في الأمة، وأن يكون محترمًا من جميعها، إذ لا تحصل المنفعة المقصودة منه كاملة بدون نفوذه واحترامه، فطاعة الأمة للشريعة غرض عظيم، وإن أعظم باعث على احترام الشريعة ونفوذها، أنها خطاب الله تعالى للأمة. وقد جاء تعظيم نصوص الوحيين في آيات كثيرة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فوصف الله سبحانه وحيه بالنور والبرهان والرحمة والشفاء والهدى، كما جاء تعظيم السنة في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٢، ٣]، كل ذلك سيق مساق التعظيم، ليقع في قلوب العباد موقع التعظيم والإجلال.

والحاصل أن كل ما ينافي تعظيم النص الشرعي مناقض لمقصد الشريعة من التنزيل[١].

٣) في تعظيم النص الشرعي تحقيق لمقصد الشريعة من التكليف، لأن المقصد الشرعي من وضع الشريعة «إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارًا»[٢]. وهذا المقصد الذي ذكره الشاطبي يستلزم عدة لوازم تقوم كلها على تعظيم النص الشرعي، فمجانبة الهوى، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء، وامتثال الأمر والنهي الشرعيين، وعدم التقديم بين يدي الله ورسوله، واحتمال المشاق في التكليف، وإيثار مرضاة الله، والتجافي عن مساخطه، ونحو ذلك من المعاني المحققة لحقيقة العبودية لله تعالى، إنما تقوم على التعظيم للنص الشرعي.

وبلغ التعظيم للنص الشرعي في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ إلى أن يكون حدًّا فاصلًا بين أهل الإيمان وغيرهم، قال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [النور:٤٧، ٤٨]، فالإعراض والتولي بحضرة النص الشرعي سمة المنافقين وشأنهم،

(١) انظر: (تعظيم النص الشرعي) د. حسن جابري (ص٢، ٣) (باختصار وتصرف يسير).
(٢) الموافقات (٢/ ٢٨٩).

ثـم ذكر أهل الإيمان بعدهـم، فقال عنهـم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، ولم يـزل قولـه تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] قاعدة عظيمة من قواعد التعظيم لنصوص الوحيين[١].

معالم ومظاهر تعظيم النصوص الشرعية عند السلف

إن معالم تعظيم نصوص الوحيين عند السلف ظهرت فيما يلي:

١- حفظهم النص الشرعي حفظ المحب له الفرح به

وقد تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وكان حفظ سـلف الأمـة لنصوص الشريعة عـلى نوعين: حفظ صدور، وحفظ سطور.

فأمـا حفـظ الصـدور: فقد سـابقت الأمة في حفظه واسـتظهاره صغـارًا وكبـارًا عربًا وعجـمًا، لا حامل لهم على ذلـك إلا حب كتاب الله وتعظيمه، والمنافسـة في الشرف لحمله ونيـل بركته، وأضحى من مقررات السلف في طلب العلم وتحصيله البدء بحفظ كتاب الله تعالى وإتقانه قبل أي علم.

(١) انظر: تعظيم النص الشرعي (ص٤) باختصار وتصرف يسير.

وأما السنة، فكان حفظ السلف لها وضبطها بالسند مع العناية التامة بما يعتريه من وصل وانقطاع وصحة وضعف وسلامة وعلة، كان أعجوبة ومفخرة من مفاخر الأمة. وكل هذه العناية بالسنة وبيان الصحيح منها والضعيف والموضوع مبني على التعظيم لحديث النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والإجلال لمكانته.

وأما حفظ السطور: فالمراد به الكتابة والتدوين، وقد شمل ذلك الكتاب والسنة على حد سواء. فتم جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، ثم في عهد عثمان رَضِيَاللَّهُعَنْهُ. وكلا التدوينين والجمعين له أقوى الدلالات على حفظ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ صيانة وتعظيمًا.

وأما تدوين السنة فشأنه عجيب وعظيم، وكل نحو من هذه الأنحاء في التدوين ذو مأخذ بديع وجهد عظيم، منها المسانيد والجوامع والسنن والمعاجم، وتطلب هذا تبويبًا فقهيًّا وعقديًّا.. فهل وراء هذه الجهود الجبارة في حفظ السنة وتدوينها التي تفانى فيها السلف، إلا التعظيم الصادق للسنة واحترامها وإجلالها[1].

٢- تعظيم وتوقير النص الشرعي بقبوله والانقياد له.

لقد مر بنا قريبًا ذكر بعض النماذج من تعظيم السلف لنصوص الشريعة وانقيادهم لها، التي ظهر لنا منها ما بلغوه في تعظيمهم للنص

(١) المصدر السابق (ص٥).

الشرعي، مما يتجاوز حدود التنظير المجرد والوصف الأجوف، إلى الانقياد لها والعمل بها والتسليم لها والتشنيع والإنكار الشديد على من يعترض عليها أو يقدم عليها عقلًا أو رأيًا أو ذوقًا أو سياسة. بل ليس من المبالغة القول بأن حياتهم كلها وتاريخهم أجمع كان تعظيمًا عمليًّا للنص الشرعي، وتوقيرًا صادقًا بحكمه في شتى جوانب حياتهم، والبحث عنه، وتعلمه بغية العمل به، لا مجرد العلم به، كما نقل عن سفيان بن عيينة قوله: «إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل»(١).

ومما يلفت النظر في النماذج السابقة من تعظيم السلف للنصوص الشرعية: سرعة الامتثال لحكم النص أمرًا ونهيًا، وتطبيقه فور بلوغه دون تردد أو تأخر، وهذه أمارة صدق لتعظيم النص، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا السالف الذكر، قال: «بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة»(٢).

وكما في قصة أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السالف الذكر، لما كان يسقي عمومته الخمر قبل تحريمها في دار أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجاءهم آتٍ،

---

(١) انظر: تعظيم النص الشرعي (ص٧-١٢) باختصار.
(٢) سبق تخريجه.

فقال: إن الخمر قد حُرمت، فقالوا أكفئها، فكفأتُها، وفي لفظ قال: فجرت في سكك المدينة، وفي لفظ قال: فما راجعوها ولا سألوا عنها بعد خبر الرجل(١).

فأن يتحول المصلون في قبلتهم من بيت المقدس إلى الكعبة، وهم في الصلاة فيكون إمامهم خلفهم، وأن يُسارع القوم في إراقة شراب لهم كان حلالًا، كل ذلك بمجرد بلوغهم النص: آية في تعظيمه وتوقيره!!

ولما يوصف رجلٌ حديدُ الرأي مثل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه كان وقافًا عند القرآن، فإنه يعني تطويع النفس لتعظيم النص الشرعي، وتقديمه على ما ألفته من اعتداء وصلابة.

ولنتأمل هذا الموقف: قال ابن عمر: كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ فقال: يمنعه قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»**(٢).

كما يتبين لنا من هذه النماذج:

شدة التمسك بمقتضى النص ودوام الامتثال له مدى الحياة، في مجاهدة عظيمة تثبت تعظيمًا عظيمًا وتوقيرًا بالغًا للنصوص الشرعية وأحكامها.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فابـن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يروي حديث: «**ما حقُّ امرئٍ مسـلم له شيءٌ يـوصي فيه يبيت ليلـةً أو ليلتين، إلا ووصيته عنـده مكتوبة**»، قال: فما مـرت عـليَّ ليلة منذ سـمعت رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال ذلك، إلا وعندي وصيتي[(١)].

وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصف حاله، فيقول: «أوصاني خليلي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بثلاث، لا أدعهن حتى أموت، صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»[(٢)].

إنه لمن اليسـير أن يأخذ المسـلم نفسـه بحزم، ويلزمها حكمًا ما في مسألة ما، لكن ديمومة العمل عليه، واستمرار حمل النفس عليه جهد عظيم وجهاد بالغ، عاشـه السلف، واستسـهلوه حبًّا للنص الشرعي وتوقيرًا له.

ومـن معـالم تعظيم السـلف لنصـوص الشريعة: العمـل بالنص وامتثاله وقت الصعاب والشـدائد والمضائـق، وهذا من آكد أمارات الصدق في التعظيم، حيث لا يكون في وقت الرخاء دون الشدة، ولا في اليسر دون العسر.

فهـذا الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لما وقعت المحنة بالقـول بخلق القرآن، واسـتُدعي الأئمـة لامتحانهـم، خرج الإمـام أحمد مـن داره مختبئًا في

(١) مسلم (١٦٢٧).
(٢) البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١).

دار تلميذه إبراهيم بن هانئ، ومكث عنده ثلاثًا، ثم قال: اطلب لي موضعًا، فقال له ابن هانئ: لا آمن عليك! قال: افعل، فإذا فعلت أفدتُّك، فطلبتُ له موضعًا، فلما خرج قال: اختفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار ثلاثة أيام، ثم تحول.

فلله ما أعجبه من تعظيم للنص، وتوقير صادق يشهد له العمل في أصعب المواقف، أهذا موضع يسع المرء فيه أن يخلص بفكره إلى محنته، أم إلى توقف وامتثال، بل إلى بحث عن اقتداء واستنان؟

ثم نطق رَحِمَهُ اللَّهُ بما حقه أن يكتب بماء الذهب، فقال: «وليس ينبغي أن تتبع سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرخاء وتترك في الشدة»[1].

٣- نصرة النص الشرعي والذب عنه.

وهذا هو المعلم الثالث من معالم تعظيم النصوص الشرعية، ألا وهو نصرة النص الشرعي، وعدم تجاوزه، والذب عنه ضد خصومه المعترضين عليه والمناوئين له، وهذه النصرة لون من ألوان تعظيم النص الشرعي، والذي حفلت به حياة السلف رحمهم الله تعالى، حيث تصدوا لأقاويل المبتدعة التي ليس لها من تعظيم النصوص نصيب، حيث قاموا بردها أو تعطيلها أو تحريفها، ولم يكن للسلف الصالح إزاءها إلا الإنكار والتشنيع عليها، ومن أبرز هذه المواقف

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٦٤)، ومناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص٤٣٠).

بدعة المعتزلة، الذين يقدمون العقل على النص الشرعي: كقولهم بخلق القرآن، وتعطيل الصفات، وعدم أخذهم بحديث الآحاد. وقد صبر السلف على ما جاءهم من الابتلاء والمحن في سبيل نصرتهم لنصوص الشريعة وتعظيمها والذب عنها، فلم تلن قناتهم، ولم تهن عزائمهم، كيف والموقف موقف نصرة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمها. ومن هؤلاء العلماء الربانيين الذين انتصروا لنصوص الشريعة ولم يتجاوزوها، وأقاموا الحجة على المناوئين لها: إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وثباته في فتنة القول بخلق القرآن، حيث كان يقول لهم دومًا: «أعطوني آية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ أو حديثًا من سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذهب إليه».

ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي قام بسيف الحجة والبيان في وجه خصوم الكتاب والسنة، متمسكًا بأدلتهما ناصرًا ومعظمًا لهما، فتصدى للأشاعرة الذين هم ورثة المعتزلة، وتصدى للقدرية، وتصدى لمدارس الرأي، التي تقدم القياس على النص، وتصدى لمدارس الصوفية التي تقدم الذوق والوجد على النص، وتصدى لأرباب السياسات الجائرة، الذين يقدمون السياسة على النص، فجزاهم عن أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الجزاء[1].

(١) المصدر السابق.

٤- خدمة النص الشرعي بما يحقق فهمه ونشره.

والتراث الإسلامي حافل بمئات بل آلاف الكتب، التي ألفها السلف رحمهم الله تعالى في تفسير القرآن وأسباب النزول وفروع علوم القرآن. وكذلك ما تركوه من التراث العظيم في تدوين السنة النبوية وشروحاتها الكثيرة العظيمة، ولا شك أن هذا يدل على تعظيم نصوص الشريعة عند السلف والعناية العظيمة بها(١).

٥- الحكم بنصوص الشريعة بين الناس والتحاكم إليها ورفض كل ما عارضها.

إن المتتبع لأحوال المسلمين في تاريخهم الطويل ليرى تعظيم حكام المسلمين ومحكوميهم لأحكام الشريعة، حيث لم يرضوا بها بديلًا في الحكم والتحاكم، ولم يدر في خلد أحد منهم أن يُحكم في أديان المسلمين وأنفسهم وعقولهم وأموالهم وأعراضهم بحكم غير حكم الله عَزَّوَجَلَّ، بل كانت الشريعة الإسلامية معظمة في النفوس، منقادة إليها القلوب والأبدان، مستسلمين لها راضين بأحكامها، وما ذاك إلا من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ونصوص وحيه، حتى دار الزمان دورته، وسقطت الخلافة الإسلامية بسبب بعدها عن أحكام الشريعة، واستثمار أعدائها لهذا الضعف والبعد، فورثوا هذه الخلافة، وقسموا

(١) انظر: (تعظيم النص الشرعي) (ص١٢-١٥).

بلاد المسلمين وخلافتهم العظيمة إلى دويلات، حكموها بغير شرع الله، ثم جاءوا بعد تحرير بلاد المسلمين بخلفاء لهم لم يعظموا الله تعالى، ربوهم على أعينهم، فتنكروا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ، وعزلوها عن السياسة وعن الحياة، فأصبحت أكثر بلدان المسلمين تحكمها حكومات علمانية، لم تقدر الله عَزَّوَجَلَّ حق قدره، فنبذوا كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراءهم ظهريًّا، وحاربوا كل معظم لله عَزَّوَجَلَّ ووحيه، يدعو إلى تعظيم وتحكيم الشريعة وإقامة حكومة إسلامية تدين لله تعالى ولشرعه بالولاء والتعظيم، وتصدى لهؤلاء الدعاة نابتة من بني جلدتنا، تنكرت لدينها، وأعلنت تبعيتها وولاءها للغرب الكافر وسياسته وأنظمته، وبدأوا يسخرون من الدعاة إلى تحكيم الشريعة وتعظيمها، ويثيرون الشبهات، ويتجرؤون على نصوص الشريعة، وكأنها كلام مخلوق قابل للتفاوض والاعتراض والأخذ والرد، ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾. ومن عجائب القوم أنهم يلبسون كرههم هذا للشريعة بلبوس الدين وإثارة الشبهات، وكأنهم ينطلقون من منطلق علمي، والله أعلم بما في قلوبهم من النفاق والريب والشك والمرض. وقد ذكرت تفصيلًا لشبهاتهم وتفنيدًا لها في كتاب ﴿**قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ فليرجع إليها.

ولو تأملنا في دوافع القوم فإنا نرى أن وراء الأكمة ما وراءها، وليست المسألة خلافًا علميًّا مجردًا، وإنما وراءها أمراض وأسباب

وأهـواء نفسـية. يقول الأسـتاذ عبـدالله العجـيري في كتابـه النفيس (ينبوع الغواية الفكرية): «لا شك في أن الإخلال بأصل التسليم على درجـات، يبلغ بعضها بالإنسـان حـد الخروج من الإسـلام بالكلية، بينـما يعـد بعضهـا انحرافًا وزيغًـا لا يبلغ مبلـغ الكفـر، وإذا تجاوزنا ذلك الخطاب (العلماني الغالي)، الذي يسعى لتجاوز (مبدأ التسليم) لخطـاب الوحي أصلًا، بل يجهد في نقضه ورده، بنزع قدسـية النص، وزحزحة الثوابت، وأنسـنة التراث؛ فإن مفهوم التسـليم لله ورسوله يظـل واحدًا من أظهـر بدهيات التدين، فالتدين في جوهره مؤسـس عـلى فكرة الطاعـة المطلقة والإيمان المطلق بكل مـا يقوله الرب عَزَّوَجَلَّ أو يقولـه رسـوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وهذه البدهية الدينيـة جاء التنصيص عليهـا في غـير مـا آية وحديـث، ومع وضـوح هذا الأصـل من جهة التنظـير، وادعاء الأكثـر الالتزام به نظريًّا، إلا أن ثمـة خللًا عميقًا في تطبيقه وممارسـته عنـد الكثيرين، وقد ولد هذا الخلـل صورًا متعددة من الانحراف والزيغ.

ومـا عليك إلا أن تتأمـل في واقع كثير من (المهزومين فكريًّا) من باحثين ومثقفين ومفكرين، لترى حجم الحرج والضيق الذي يعصف بهـم، متى ما أُحوجوا للكلام حول جملة من الحقائق الشرعية، التي لم تـأت وفق أهوائهـم وأمزجتهم، ذلك الحرج والضيـق الذي يحملهم عـلى عدم إثـارة هذه الموضوعـات ابتداءً، ولا يرغبـون في إثارتها من

غيرهـم، لئـلا يضطـروا- بزعمهـم- للـكلام حولهـا منافحـين عن (سـمعة الإسلام)، (وسماحة الإسـلام)، (وجمال الإسلام). فإذا ما قُـدِّر وأحوجـوا للكلام فيهـا، وجدتهم ينفون التهـم بنفي الأحكام، فـيردون النصوص، ويحرفون دلالتها، ويفتعلون المعارك مع التراث، ويتعلقون بالشاذ من الأقوال، ويتتبعون رخص المذاهب، وهكذا.

غدا الحديث عن حقائـق الولاء والبراء، وأحكام المرتد، وجهاد الطلـب، وأبواب الرق، وقضايا المـرأة (الحجاب- الاختلاط- تعدد الزوجـات- الـولي والمحـرم- حـدود المشـاركة السياسـية) وغيرها عنـد بعض الناس ضربًا مـن ضروب الانتحار الدعـوي، وصار من المخجـل في زمـن (الليبرالية) و(حقـوق الإنسـان) و(الديمقراطية) الحديث عن حدٍّ اسـمه حد الردة، أو عقوبة كالرجم، أو شيء اسـمه الـرق والعبودية، أو قتالٍ مقصوده نشر الدين، أو تمييز بين البشر على أسـاس الديـن، أو تحريـم لشيء مـن الفنـون كرسـم ذوات الأرواح والموسيقى، أو منعٍ للمرأة من ممارسة بعض حقها السياسي!

بـات من الواضح مثلًا أن قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما رأيت من ناقصـات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النسـاء**»[1] غير موافق للمزاج الليبرالي العام، وأن نفوسًا كثيرة باتت تضيق به وبمراميه، وقل الأمر نفسـه في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لن**

(١) البخاري (١٤٦٢).

يفلح قـومٌ وَلَّوا أمرهم امرأةً»[١]، أو قوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»[٢] أو غير ذلك من الأحاديث.

وهكـذا تـرى أولئـك المهزومـين متـى مـا حـوصروا بالحقائـق الشرعيـة، يهبون فزعين للحديث عن تاريخية النص، وإعادة القراءة، والفهم المؤدلج، والنص المفتوح، والتعددية الفكرية، ونسبية الحقيقة، مخلفـين وراءهم واجباتٍ شرعيـة عظامًا، هي ثمـرة التدين الحق من انقياد وطاعة وتسليم وخضوع لله تبارك وتعالى، ورحم الله ابن القيم حـين وضع يده على مثل هـذه الجراحات، فقال: «فسـبحان الله، كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص، وبودهم أن لـو لم تـرد، وكم مـن حـرارة في أكبادهم منها، وكم من شـجى في حلوقهم منها ومن موردها.

ستبدو لهم تلك السرائر بالذي　　　يسوء ويخزي يوم تبلى السرائر»[٣].

وبطبيعة الحال، فإن كثيرًا من أولئك المهزومين متى ما حوصروا بالدلائـل الشرعيـة المخالفة لأهوائهم سيلتمسـون طرائق ومخارج -

---

(١) البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢).
(٢) الترمذي (١١٥٩)، وقال: حديث حسن غريب. وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ٥٤ رقم١٩٩٨).
(٣) الرسالة التبوكية (ص ٥٢).

بوعي أو بغير وعي- للخروج من سلطة هذه النصوص ومقتضياتها، بما يحقق لهم حالة من الطمأنينة والشعور بأنهم لا زالوا مستمسكين بالوحي مع استبقاء أهوائهم، ليظهروا في أعينهم وأعين مخالفيهم في صورة المسلِّم للنص في الظاهر، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾، فيديرون عملية توفيقية تلفيقية بين معطيات النص ومعطيات الواقع، ويوردون جملة من الإشكالات والشبهات في معارضة النص، تسهيلاً لإقامة هذا النموذج التلفيقي»[1].

ثم تحدث المؤلف حفظه الله تعالى عن محركات الأفكار عند القوم وعوامل رد الحق، فقال: «وإذا كنا نتحدث عن عوامل رد الحق والإقبال على الباطل، فيمكن إعادتها إجمالًا إلى مفهوم مركزي في خطاب الوحي، والذي يشكل غطاءً لعامة بواعث الانحراف عن الحق، وهو مفهوم (الهوى)، فكل ذريعةٍ تصد صاحبها عن الاستجابة للحق فإنما لغلبة الهوى على النفس، وقد كشف القرآن صراحةً عن ثنائية الاستجابة للحق أو الاستجابة للهوى، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فليس ثمة إلا طريقان: الاستجابة للوحي، أو الوقوع في أفخاخ الهوى. ومثل هذه الآية في الدلالة أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) ينبوع الغواية الفكرية (ص٢٦-٣٠).

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، فإما الحكم بالحق، وإما حكم الهوى. ومثلهما أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨]، قال الإمام الشاطبي: «العقل إذا لم يكن متبعًا للشرع، لم يبق له إلا الهوى والشهوة»(١).

وقال العلامة عبدالرحمن المعلمي كاشفًا شديد تأثير الهوى على الإنسان: «وللهوى سلطان عظيم على النفوس، فربما عرضت الحقيقة البينة على النفس، وهي غير مخالفة لهواها فقبلتها، ثم تعرض عليها حقيقة مثل تلك في الوضوح أو أبين، ولكنها مخالفة لهواها فتردها»(٢).

وبطبيعة الحال، فمفهوم الهوى في الخطاب الشرعي واسعٌ جدًّا، يندرج تحته عدد كبير من الممارسات والصور»(٣) اهـ.

ويجمل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أسباب الإعراض عن الحق، فيقول: «والأسباب المانعة من قبول الحق كثيرة جدًّا، فمنها: الجهل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس، فإن من جهل شيئًا

(١) الاعتصام للشاطبي (١/ ٥١).
(٢) رفع الاشتباه عن معنى العبادة (ص١٥٩).
(٣) ينبوع الغواية الفكرية (ص٣١-٣٣).

عاداه وعادى أهله، فإن انضاف إلى هذا السبب بغض من أمره بالحق ومعاداته له وحسده، كان المانع من القبول أقوى، فإن انضاف إلى ذلك إلفه وعادته ومرباه على ما كان عليه آباؤه ومن يحبه، ويعظمه قوي المانع، فإن انضاف إلى ذلك توهمه أن الحق الذي دُعي إليه يحول بينه وبين جاهه وعزه وشهواته وأغراضه، قوي المانع من القبول جدًّا، فإن انضاف إلى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه، كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ازداد المانع من قبول الحق قوة»(١) اهـ.

المظهر التاسع: الثناء على الله عَزَّ وَجَلَّ والإكثار من ذكره ودعائه:

إن من عظم شيئًا وقدَّره أحبه وأكثر من ذكره، ولم يغفل قلبه عنه، لذا فإن من علامات تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ كثرة ذكره في جميع الأحيان والمناسبات، ولا سيما تكبيره سبحانه وتحميده وتسبيحه، والثناء عليه بأسمائه الحسنى مع التدبر والخشوع. والناظر في هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذكره لربه ودعائه، يرى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفتر عن ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، وفي أحيانه كلها، ويرى كثرة استغفاره لربه سبحانه، وتضرعه بين يديه سبحانه، ودعائه وسؤاله بجوامع الدعاء، وليس المقام مقام ذكر هذه الأحوال، وبما كان يدعو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) هداية الحيارى (ص١٦).

ربه، ويذكره من أنواع الأدعية والأذكار، وإنما المقصود التنبيه على أن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ودعاءه والتضرع بين يديه، وإظهار المسكنة له سبحانه، لهو من علامات تعظيم الله سبحانه وإجلاله، كما أن المتأمل في مفردات أدعيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأذكاره، ليرى أنها تتضمن اللهج بتعظيم الله سبحانه وتنزيهه وتكبيره وتحميده والثناء عليه، ولا سيما أذكار الصلاة والحج والجهاد والآيات الكونية، وعند التعجب والتنزيه، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: «**رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(١).

المظهر العاشر: عدم الفتوى والقول على الله عَزَّوَجَلَّ بلا علم.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

إن من علامات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب الخوف والحذر من القول على الله عَزَّوَجَلَّ بغير علم، أو الإفتاء في حكم شرعي دون مستند شرعي من كتاب أو سنة. وكلما ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلب تجرأ صاحبه على الفتيا والتوقيع عن رب العالمين.

---

(١) البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

إن إفتـاء النـاس في دينهـم أمانة عظيمـة، كان السـلف الصالح يخافون منها أشد الخوف، وذلك لتعظيمهم لله عَزَّوَجَلَّ، ولأنهم يبلغون عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الدين، وما يتعلق به من عقائـد وأحكام. وعامة الناس يتعلقون بفتاوى أهل العلم، وينفذون أقوالهـم عـلى أنها حكـم الله تعالى. فـإذا أفتى المفتي بلا علـم، أو كان عـلى علم بوجه الحق في المسـائل، ثم كتم الحـق أو أفتى بخلاف الحق مسايرة لواقع الناس واتباعًا لأهوائهم، أو طمعًا في دنيا فانية، فالويل له من سؤال الله عَزَّوَجَلَّ له: بماذا أجبتم المرسلين؟ والويل له مما يتحمل من آثام الناس، الذين جعلوه واسطة بينهم وبين الكتاب والسنة.

ولا يظهـر خطـر مثل هـذه الفتاوى، كـما يظهر في هـذه الأزمنة المتأخـرة، حيـث قل تعظيـم الله في النفوس، فتسـاهل بعـض المفتين هداهم الله، وتسرعوا في إفتاء الناس بفتاوى تطير عبر وسائل الإعلام بشتى صورها إلى أصقاع الدنيا، فيعمل بها الناس، مع مخالفتها أحيانًا للدليل الصحيح، أو حاجتها إلى مزيد من التأمل والدراسـة، والنظر في حال المسـتفتي وزمانـه ومكانه وقصده، أو الإفتاء في مسـألة دون النظر إلى مآلات الفتوى فيها.

ومما يؤلم النفس أن نرى في هذا الزمان جرأة على أحكام الله عَزَّوَجَلَّ مـن الصغير والكبير والمـرأة والرجل، لا يتورعون من القول في شرع

الله تعـالى بلا علـم، أو تقليد أعمى، وذلك في المجالس أو على أعمدة الصحف والمجلات!!

إن المتأمـل في أحـوال سـلف الأمة مـن الصحابـة والتابعين لهم بإحسـان لـيرى عندهـم ذلـك التعظيـم الشـديد لله عَزَّوَجَلَّ، والخوف الشـديد مـن إفتاء النـاس، والتوقيع عـن رب العالمـين في كون الأمر المسـؤول عنه حلالاً أو حرامًا، وإذا كان خوف السـلف شـديدًا من الإفتـاء، وهـم على ما هـم عليه مـن العلم الغزيـر والورع الشـديد، فحري أن يكون من بعدهم أشد خوفًا وإشفاقًا منهم.

وفيـما يلي أمثلة مضيئة من حال سـلفنا الصالح، الذين جمعوا بين العلـم وتعظيـم الله عَزَّوَجَلَّ، والخوف الشـديد الـذي جعلهم يكرهون الإفتاء، ولا يجيبون على كل مسـألة يسـألون عنهـا؛ لعل في قراءتنا لها أكبر عظة وعبرة.

- قـال ابـن الصلاح: «عن محمد بن المنكدر، قـال: إن العالم بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم»[1].
- عن عبدالرحمن بن أبي ليلى أنه قال: «أدركت عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسـأل أحدهم عن المسـألة يردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى

(١) أدب المفتي (ص٧٤).

الأول). وفي روايـة: «ما منهم من أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخـاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا»(١).

وعن ابن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «من أفتى الناس في كل ما يستفتونه فهو مجنون»(٢).

- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه(٣).
- عـن أبي حصـين الأسـدي أنـه قـال: «إن أحدكـم ليفتـي في المسـألة، ولـو وردت على عمر بن الخطـاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجمع لها أهل بدر»(٤).
- وروي عن الحسن والشعبي مثله.
- وقـال محمد بن عجلان: «إذا أغفل العالم: (لا أدري). أصيب في مقاتله»(٥).
- وروى مالـك مثـل ذلـك عن ابـن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٦) ...عن القاسـم بن محمد بن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه جاءه رجل

(١) الطبقات لابن سعد (٦/ ١١٠).
(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٩٠).
(٣) جامع بيان العلم (٢/ ١٦٤).
(٤) تاريخ دمشق (٣٨/ ٤١١).
(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٦).
(٦) جامع بيان العلم (٢/ ٥٤).

فسـأله عن شيء، فقال القاسـم: «لا أحسـنه»، فجعل الرجل يقـول: إني دفعت إليـك لا أعرف غيرك؟ فقال القاسـم: «لا تنظـر إلى طول لحيتي، وكثرة الناس حولي، والله ما أحسـنه»، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فو الله مـا رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم، فقال القاسـم: «والله لأن يقطع لساني أحب إليَّ من أن أتكلم بما لا علم لي به»[1].

- عن عبدالرحمن بن مهدي قال: «جاء رجل إلى مالك بن أنس يسـأله عـن شيء أيامًـا ما يجيبه، فقـال: يا أبا عبـدالله إني أريد الخروج، وقد طال التردد؟ قال فأطرق طويلًا، ثم رفع رأسه، فقال: ما شاء الله يا هذا، إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه»[2].
- وروي عن الشـافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه سـئل عن مسألة، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى أدري: الفضل في سـكوتي، أو في الجواب»[3].
- وعـن أبي بكر الأثرم، قال: «سـمعت أحمد بن حنبل يسـتفتي، فيكثر أن يقول: لا أدري، وذلك فيما قد عرف الأقاويل فيه»[4].

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٥٣).
(٢) الحلية (٣/ ٣٢٣).
(٣) أدب المفتي (ص٧٤).
(٤) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٩).

- وعن سحنون أنه قال: «أشقى الناس من باع آخرته بدنياه، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره. قال: ففكرت فيمن باع آخرته بدنيا غيره، فوجدته المفتي، يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقه، فيقول له: لا شيء عليك، فيذهب الحانث فيتمتع بامرأته ورقيقه، وقد باع المفتي دينه بدنيا هذا»[١] اهـ.
- وعن نافع: «أن رجلًا سأل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن مسألة فطأطأ رأسه ولم يجبه، حتى ظن الناس أنه لم يسمع مسألته، فقال له: يرحمك الله! أما سمعت مسألتي؟ قال: بلى، ولكنكم كأنكم ترون أن الله تعالى ليس بسائلنا عما تسألونا عنه، اتركنا رحمك الله حتى نتفهم في مسألتك، فإن كان لها جواب عندنا، وإلا أعلمناك أنه لا علم لنا به»[٢].
- وعن سيار أبي الحكم، قال: قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنكم تستفتوننا استفتاء قوم، كأنا لا نسأل عما نفتيكم به»[٣].
- وعن عبدالله بن بشر: «أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سئل عن مسألة فقال: لا علم لي، ثم قال وابردها على الكبد: سئلت عما لا أعلم فقلت: لا أعلم»[٤].

---

(١) أدب المفتي (ص٧٤).
(٢) صفة الصفوة (١/ ٥٦).
(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٠).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٦٢).

- وعن عقبة بن مسلم: «أن ابن عمر سئل عن شيء، فقال: لا أدري، ثم أتبعها، فقال: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا لكم جسورًا في جهنم؛ أن تقولوا أفتانا ابن عمر بهذا»(١).
- عن أيوب قال: سمعت القاسم يسأل بمنى، فيقول: لا أدري، لا أعلم، فلما أكثروا عليه قال: والله لا نعلم كل ما تسألونا عنه، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا يحل لنا أن نكتمكم(٢).
- وعن يحيى بن سعيد قال: سمعت القاسم يقول: ما نعلم كل ما نسأل عنه؛ ولأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله تعالى عليه، خير له من أن يقول ما لا يعلم(٣).
- وعن أبي يوسف قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «من تكلم في شيء من العلم وتقلده، وهو يظن أن الله لا يسأله عنه: كيف أفتيت في دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه»(٤).
- وقال أيضًا: «لولا الفرق من الله أن يضيع العلم ما أفتيت أحدًا؟ يكون له المهنأ، وعليَّ الوزر»(٥).

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٥٠).
(٢) صفة الصفوة (٢/ ٨٩).
(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥٦).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٠).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٥٠).

- عن عطاء بن السائب: «أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء فيتكلم، وإنه ليرعد»(١).
- وكان مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «من أجاب في مسألة، فينبغي من قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها»(٢).
- وعن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لقد رأيت ثلاث مئة من أهل بدر ما منهم أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى»(٣).

هذه بعض أحوال السلف رحمهم الله تعالى مع العلم والفتوى؟ وهم أهل العلم والفتوى، والتقوى؛ فما بالنا اليوم مع قلة علمنا وتقوانا يتجرأ أحدنا على الفتيا بلا علم، أو بنصف علم، أو بأظن، ولعل، وكأن الفتوى هذه شربة ماء؟! والجواب: أن في قلوب سلفنا الصالح من التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ والخوف منه ما ليس في قلوبنا.

ألا فلنتق الله عَزَّوَجَلَّ، ونحسب للوقوف بين يدي الله حسابه، ولنعد للسؤال جوابًا.

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٨).
(٢) ترتيب المدارك (١/ ١٤٤).
(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٤٩).

المظهر الحادي عشر: الموالاة والمعاداة في الله عَزَّوَجَلَّ.

إن من بدهيات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته أن يحب المعظم لله ما يحبه ربه ومن يحبه، ويبغض ويعادي من يبغض الله عَزَّوَجَلَّ وما يبغضه، إذ لا يقبل من إنسان ادعاءه تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته، وهو يحب أعداء الله عَزَّوَجَلَّ أو يعادي أولياءه. وهذا مشاهد في أحوال من يعظمون البشر ولله المثل الأعلى، ويترتب على هذا تعظيم وإجلال من عظمه الله تعالى وإهانة من أهانه، كما يترتب عليه أيضًا محبة المجالس التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ: كمجالس العلم والذكر والعبادة والدعوة وبغض وهجر المجالس، التي يبغضها الله عَزَّوَجَلَّ: كمجالس اللهو والخوض في آيات الله، ومجالس الشبهات، ومجالس الغيبة والظلم والعدوان. إن كل ذلك من لوازم تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ. كما أن من لوازم تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ محبة من يعظم الله عَزَّوَجَلَّ، والفرح بوجوده وسماع كلامه الذي يعظم فيه الله تعالى، وكراهية وبغض من لم يعظم الله تعالى، والاشمئزاز والنفور من كلامه والإنكار عليه.

المظهر الثاني عشر: التواضع للحق وللخلق والتخلص من العجب.

إن القلب حين يمتلأ من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله لا يمكن أن يكون صاحبه متكبرًا، بل إن خلق التواضع يظهر في أحواله كلها، فتراه حين يظهر له الحق بدليله يخضع له ويتواضع وينقاد له ويسلِّم،

وحين يخالط الناس فإنه يتواضع لهم، ولا يرى نفسه فوقهم، ولا يتكبر عليهم، بل إنه ليزري على نفسه ويحتقرها، ولا يراها إلا مقصرة في جنب الله عَزَّوَجَلَّ، موقنًا بأنه ضائع هالك لو وكله الله لنفسه طرفة عين، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله عَزَّوَجَلَّ. ومن هذا شأنه لا يتطرق العجب ولا الغرور ولا الكبر إلى نفسه، وما ذاك إلا من تعظيمه لربه سبحانه بما يعرفه عنه من الأسماء الحسنى وصفات الكمال والجلال، وبما يعرفه من نفسه من التقصير والعورة والخطيئة.

يقول القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسر تحريم العجب أنه سوء أدب مع الله تعالى، فإنه لا ينبغي له أن يستعظم ما يتقرب به إلى سيده، بل يستصغره بالنسبة إلى عظمة سيده، لا سيما عظمة الله تعالى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي ما عظموه حق تعظيمه، فمن أعجب بنفسه وعبادته فقد هلك مع ربه وهو مطلع عليه، وعرض نفسه لمقت الله تعالى وسخطه، ونبَّه على ضد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، معناه يفعلون من الطاعات ما يفعلون وهم خائفون من لقاء الله تعالى بتلك الطاعة احتقارًا لها، وهذا يدل على طلب هذه الصفة والنهي عن ضدها»[(١)].

ولما سئل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكبر، قال: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[(٢)]، فسر الكبر بأنه رد الحق وعدم قبوله والتسليم له،

---

(١) الفروق للقرافي (٤/ ٣٨١).
(٢) رواه مسلم (٩١).

واحتقار الناس، والترفع عليهم وازدراؤهم، ومن هذا التعريف للكبر يمكننا تعريف التواضع بعكس ذلك، ألا وهو: التواضع للحق وقبوله، والتواضع للخلق وعدم احتقارهم، وكل هذا عائد إلى ما في القلب من التعظيم لله تعالى وجودًا وعدمًا، قوة وضعفًا.

ولو نظرنا في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرة أصحابه والتابعين لهم بإحسان لظهر لنا هذا الخلق واضحًا جليًّا. حيث كان التواضع وزهدهم في الشهرة والعلو صفة ظاهرة لهم، وما ذاك إلا من امتلاء قلوبهم من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، فحين يدعون إلى الله فإنهم يدعون إلى تعظيمه وعبادته وحده، لا إلى تعظيم نفوسهم وقدرهم عند الناس، وهذا على عكس أحوالنا اليوم التي يدعو كثير منا إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن البعض منا قد يكون يدعو إلى نفسه ويعظمها، لا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا عن اللحظات الأخيرة في حياة الفاروق، فيقول: أنا آخركم عهدًا بعمر، دخلت عليه، ورأسه في حجر ابنه عبدالله بن عمر، فقال له: ضع خدي بالأرض، قال: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال: ضع خدي بالأرض لا أم لك، في الثانية أو في الثالثة، ثم شبك بين رجليه، فسمعته يقول: ويلي، وويل أمي إن لم يغفر الله لي، حتى فاضت روحه[1]. وإصراره على أن يضع ابنه خده على الأرض، من باب إذلال النفس في سبيل تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، ليكون أقرب إلى الله تعالى، وأقرب لاستجابة دعائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب (٢/ ٦٣).

وروى البيهقي بسنده عن أبي عثمان سعيد بن عثمان، قال: «سمعت ذا النون ابن إبراهيم، وسأله رجل: من أراد التواضع كيف السبيل إليه؟ فقال له: افهم ما ألقي إليك رحمك الله: من أراد التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله، فإنها تذوب وتصغر، ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه، لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومن أشرف التواضع أن لا ينظر العبد إلى نفسه دون الله»(١).

وأحوال السلف وتواضعهم وكراهيتهم للشهرة والظهور كثيرة، وقد ذكرت طائفة منها في كتاب **(أين نحن من أخلاق السلف)**، وكتاب ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، فليرجع إليها.

ومن حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وعدله وفضله أن يجعل في قلوب الناس توقير أوليائه المعظمين له وتقديرهم، وينزع هذا التوقير والمحبة من قلوب الناس، لمن لم يعظم الله عَزَّوَجَلَّ ويقدره ويجله. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير من الناس، وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق، وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي لا تعاملونه معاملة من توقرونه .. ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبة،

---

(١) انظر: شعب الإيمان، للبيهقي (٦/ ٢٩٧).

بل يسقط وقاره وهيبته في قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره، فذاك وقار بغض، لا وقار حب وتعظيم»(١).

المظهر الثالث عشر: توقير وإكرام ذي الشيبة من المسلمين.

قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»(٢).

شرح الحديث:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من إجلال الله**» أي من تعظيمه وتبجيله «**إكرام ذي**» أي

صاحب «**الشيبة المسلم**» الذي شاب شعره: أي ابيض ونفد عمره في الإسلام والإيمان، فتعظيمه وتقديمه في الصلاة بشرطه على غيره، وفي المجامع والمجالس، وفي القبر وغيره، والرفق به، والشفقة عليه من كمال تعظيم الله لحرمته عند مولاه سبحانه، «**وحامل القرآن**» أي قارئه، سمي حاملًا لما تحمل في حفظه من الدرس والمشقة في تفهمه والعمل بأحكامه وتدبره، فهو كحامل لمشاق كثيرة تزيد على الأحمال

(١) الفوائد (ص٨٨)، دار الكتب العلمية.
(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٨٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٨).

الثقيلة، (غير) بالنصب على الاستثناء وبالجر على الوصفية، «**الغالي**» بالمعجمة «**فيه**» المتجاوز الحد في التشدد والعمل به، وتتبع ما خفي منه واشتبه عليه من معانيه، والكشف عن دقيق علله، التي لا يصلح فيها عقله بما يبتدعه في الدين، ليضل ويضل غيره، ويجاوز حدود قراءته ومخارج حروفه ومده، «**والجافي عنه**» أي التارك له البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه، فإن هذا من الجفاء، وهو البعد عن الشيء. قال في (النهاية): وإنما قال ذلك لأن من أخلاقه التي أمر بها القصد في الأمر. والغلو: التشديد في الدين ومجاوزة الحد، والتجافي: البعد عنه. قلت: لا سيما من أعرض عنه لكثرة النوم والبطالة والإقبال على الدنيا والشهوات، وما أقبح بحامل القرآن أن يتلفظ بأحكامه ولا يعمل بها، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارًا، «**وإكرام ذي**» أي صاحب «**السلطان**» أي الملك والتسلط «**المقسط**» بضم الميم: أي العادل في حكمه بين رعيته»(١).

ومما يلحق بإكرام ذي الشيبة المسلم من باب أولى إكرام وإجلال الوالدين، ولا سيما حال كبرهما، قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣، ٢٤]، وكل ذي شيبة من الأرحام والأقارب.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤/ ٢٥).

كما يلحق بحامل القرآن علماء الأمة الربانيين، الذين هم على طريق أهل الاستقامة غير الغالين ولا الجافين، فينبغي توقيرهم وإجلالهم وإكرامهم، وهذا من تعظيم الله وإجلاله وتوقيره سبحانه.

أخرج ابن عساكر عن عمار بن أبي عمار: أن زيد من ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ركب يومًا فأخذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بركابه، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقال زيد: أرني يدك. فأخرج يده فقبلها، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا(١).

المظهر الرابع عشر: الغيرة على الدين والأمر بالعروف والنهي عن المنكر.

إن المعظم لربه سبحانه لا يقر له قرار، وهو يرى حرمات الله عَزَّوَجَلَّ تنتهك وحدوده تضاع، إذ إن من علامة صدق العبد في تعظيمه لربه الغيرة على دين الله عَزَّوَجَلَّ، والأمر بما أمر الله به سبحانه من المعروف، والنهي عما نهى الله عَزَّوَجَلَّ من المنكر، وكلما ضعف تعظيم العبد لربه ضعفت هذه الغيرة في قلبه والعكس بالعكس، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن علامات تعظيم النهي أن يغضب لله عَزَّوَجَلَّ إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزنًا وحسرة إذا عصي

---

(١) تاريخ دمشق (١٩/ ٣٢٦).

الله تعالى في أرضه، ولم يضطلع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك»(١).

ويقول في موطن آخر: «وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك وحدوده تضاع، ودينه يترك وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرغب عنها، وهو بارد القلب ساكت اللسان شيطان أخرس.... وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم، وبلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»(٢).

والمجتمع المعظم لله تعالى يتحرك أهله للدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد ونشر الخير بين الناس.

ومما يلحق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والتضحية في سبيل ذلك بالمال والنفس، فكلما امتلأ قلب العبد من محبته لربه وتعظيمه، كلما هان عليه ما يلاقيه في سبيل الدعوة إليه سبحانه والجهاد في سبيله.

وبعد:

---

(١) الوابل الصيب (ص٢٤).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ١٧٧)، دار الجيل، ت: طه سعد.

فهذه بعض المظاهـر والعلامات التي تدل على تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، نسـأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يملأ قلوبنا من محبته وتعظيمه وخشـيته ورجائه، وأن يظهر ذلك في أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا.

ويحسـن بنـا في ختـام هـذا الفصـل ذكـر بعـض مظاهـر تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ عند العوالم الأخرى من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ سوى الإنسان، ليظهـر لنـا أن كل ما في السـموات والأرض مـن المخلوقات خاضع لله عَزَّوَجَلَّ، منقاد له سبحانه تعظيمًا وإجلالًا.

أولاً: تعظيم الملائكة لله عَزَّوَجَلَّ.

وهم من أشـد مخلوقات الله تعظيمًا وتوقيرًا، وإجلالًا ومحبة، ومما يدل على ذلك:

١) **إيـمان الملائكـة بـالله تعـالى، واسـتغفارهم للمؤمنين**، قـال تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، ويقـرون بـالله أنـه لا إله لهم سـواه، ويشـهدون بذلك، لا يسـتكبرون عـن عبادته، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقـول: ويسـألون ربهـم أن يغفـر للذين أقروا بمثل إقرارهم من توحيد الله، والبراءة من كل معبود سواه- ذنوبهم، فيعفوها عنهم[1]، فقيض الله سبحانه ملائكته المقربين أن

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٥٤).

يدعـو للمؤمنين بظهر الغيب(١)، كما ثبت في صحيح مسـلم، عن أبي الدرداء، قال: قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب، إلا قال الملك: ولك بمثل**»(٢).

فهم يسـتغفرون لمـن في الأرض تعظيـمًا وطاعة لله تعـالى، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

٢) **عبادة الملائكة لله تعالى: تعظيمًا له سبحانه**، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعـراف: ٢٠٦]، قـال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويسـبحونه: أي ويعظمونه وينزهونه عن كل سـوء، وله يسـجدون، قيل: يصلون»(٣)، كما وصف الله تعالى الملائكة أنهم عباد مكرمون، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

ومـن عبادة الملائكة السـجود لله تعالى، قـال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحـل: ٤٩]، خـص الله الملائكـة بعـد العمـوم لفضلهم وشرفهم وكثـرة عبادتهـم، حيـث سـجد جميـع الملائكـة طاعـة وتعظيـمًا له سبحانه.

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٠).
(٢) مسلم (٧١٠٣).
(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٣١١).

٣) لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، تعظيمًا لله تعالى، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، قال ابن كثير: «مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله، ليس بهم عجز عنه»(١)، فالملائكة تفعل ذلك طاعة وتعظيمًا لله تعالى.

٤) شهادة الملائكة بوحدانية الله تعالى، تعظيمًا وجلالًا وتوقيرًا له سبحانه، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فالملائكة تشهد شهادة حق أنه سبحانه واحد أحد، لا إله غيره في هذا الكون يستحق التعظيم.

٥) شهادة الملائكة برسالة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، قال أبو حيان: «والملائكة يشهدون: أي بما أنزل الله إليك، وشهادة الملائكة تبع لشهادة الله، وقد علم بشهادة الله له، إذ أظهر على يديه المعجزات، وهذا على سبيل التسلية له عن تكذيب اليهود»(٢)، فالملائكة تشهد شهادة حق بعد شهادة الله تعالى بنبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدقه في دعوته، وهذه الشهادة من الملائكة تأتي تعظيمًا لله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٨).
(٢) البحر المحيط (٤/ ١٤١).

٦) **لا تنزل الملائكة إلا بإذن الله، تعظيمًا لله تعالى**، قال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل: «**ألا تزورنا أكثر مما تزورنا**» قال: فنزلت[1]، ومن هذا النزول تبليغ رسالة الله إلى الأنبياء انقيادًا وطاعة وتعظيمًا لله تعالى.

٧) **كثرة تسبيح الملائكة، تعظيمًا لله تعالى**، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر عن الملائكة أنهم محدقون من حول عرشه المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور»[2].

٨) **خوف الملائكة من الله تعالى تعظيمًا له سبحانه**، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، فتسبح الملائكة خوفًا وخشية وتعظيمًا لله تعالى، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يخاف هؤلاء الملائكة التي في السموات، وما في الأرض من دابة- ربهم من فوقهم، أن يعذبهم إن عصوا أمره، ويفعلون

---

(١) البخاري (٤٧٠٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ١٢٥).

ما يؤمرون، يقول: ويفعلون ما أمرهم الله به، فيؤدون حقوقه، ويجتنبون سخطه»(١).

ثانيًا: تعظيم الجن لله عَزَّوَجَلَّ:

١) **تعظيم طائفة من الجن لكلام ربنا** جَلَّوَعَلَا، قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾ [الجن: ١-٣]، هذه الآيات من سورة الجن، تبين أنه استمع جماعة من الجن للقرآن الكريم، فاعترفوا بأنه الحق والصواب، فآمنوا به وصدقوه وعظموه، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: «تعالت عظمة ربنا وقدرته وسلطانه»(٢)، فعلمت الجن من عظمة الله تعالى، ما دلهم على قدرته ووحدانيته سبحانه.

فهذه الطائفة المؤمنة من الجن، اعترفت بأن هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنه كلام عظيم، يدل على عظيم، وهو الله سبحانه، ومن هذه العظمة أنه ليس له شريك في الملك، وأن صفاته كاملة.

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٢٠).
(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٤٧).

٢) **دعـوة طائفة من الجن قومهم إلى الإيمان بالله تعالى**، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

هذه الآيات من سـورة الأحقاف، جاءت تبين تأثر طائفة من الجن بالقرآن الكريم، وتعظيمهم لله تعالى، مما دفعهم إلى دعوة قومهـم إلى الإيمان به وتصديقه واتباعه، والسـير على الطريق المستقيم، والتحذير من الوقوع في الضلال.

ثالثًا: تعظيم النباتات لله عَزَّوَجَلَّ:

١) **سـجود النبات لله تعالى**، بين الله تعالى في أكثر من آية سـجود الشـجر تعظيمًا لله سـبحانه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فسجود هذه المخلوقات ومن ضمنها الشجر، هي عبادة لخالقها، لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها.

٢) **تسبيح النباتات لله تعالى**، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فما من شجر أو نبات أو جماد إلا يسبح بحمد الله، ولكن لا نفهم تسبيحها، وهذا التسبيح فيه تعظيم لله تعالى، قال ابن كثير: «أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في الحيوانات، والنبات والجماد»(١).

رابعًا: تعظيم الطير لله تعالى.

فجميع المخلوقات تعظم الله تعالى، والطير مخلوق من مخلوقات الله، يطير بنظام دقيق في هذا الكون، تحت إرادة الله تعالى وعلمه، فما يطير من طائر إلا بقدرة الله وعظمته سبحانه، ومن دلائل تعظيم الطير لله تعالى:

١) **التسبيح والصلاة لله سبحانه**، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل مصل منهم ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه»(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٧٩).
(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٢٠٠).

فالطير تسبح الله تعظيمًا له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسخرنا الجبال والطير يسبحن مع داود إذا سبح، قال ابن عباس: كان يفهم تسبيح الحجر والشجر، قال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير»[١].

٢) **دعوة الهدهد إلى الخير، وعبادة الله وحده تعظيمًا له سبحانه،** وهذا واضح من قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لقد أكرم الله تعالى نبيه سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالعلم والحكمة، وأعطي ملكًا عظيمًا، وعلم منطق الحيوانات والطير، حيث تفقد الطير يومًا فلم يجد الهدهد، وتوعد له بالعقاب، فلما جاء الهدهد، برر الهدهد سبب غيابه، فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤]، أصاب الهدهد الحسرة على هؤلاء القوم الذين لا يعظمون الله، ويسجدون لغير الله، فقال الهدهد: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

---

(١) البغوي (٥/ ٣٣٤).

قال الزحيلي: «فقول الهدهد: ألا يسجدوا لله، وقوله: الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، دليل على أنه داع إلى الخير، وعبادة الله والسجود له»(١)، ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم(٢)، وهذا فيه دلالة واضحة على تعظيم الهدهد لله تعالى، مما جعله يتحرك إلى إنكار ما هم عليه من عبادة الشمس من دون الله، ودعوة نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى إظهار الحق.

خامسًا: تعظيم الجمادات لله تعالى:

١) **سجود الجمادات لله تعالى:** ما من شيء في هذا الكون إلا وهو خاضع لعظمة الجبار سبحانه، متذلل لسطوته وسلطانه، فجميع ما في هذا الكون من السموات والأرض والقمر والنجوم والشجر يخضع لعظمة الله تعالى ويذل له، ومن هذه العظمة أنها تسجد لخالقها، سجودًا يليق به سبحانه، ولكننا لا

---

(١) التفسير المنير (١٩/ ٢٨٩).
(٢) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٣٩).

نفقه ذلك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

٢) **تسبيح السموات والأرض**: قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن السموات السبع والأرض ومن فيهن يسبح تعظيمًا له سبحانه.

٣) **تسبيح الرعد**: لقد أخبر الله تعالى أن الرعد تسبح تعظيمًا له سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويعظم الله الرعد ويمجده، فيثني عليه بصفاته، وينزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به، ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد، تعالى ربنا وتقدس»[١]، ويسبح الرعد بحمده انقياده لقدرته وحكمته، وإعلانًا لخضوعه له.

٤) **تسبيح الجبال**: لقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن الجبال تسبح تعظيمًا له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، إنه تعالى سخر الجبال يسبحن مع داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٩٠).

٥) **خشـية الجمادات لله تعالى**: جميع ما في هذا الكون يخضع ويذل لعظمـة الله تعـالى، ومن الخضوع أنها تخشـع تعظيـمًا لله تعالى، قـال تعـالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١][(١)].

*****

(١) انظر: كتاب (المنهج القرآني في تعظيم الله تعالى) د. عقاب الزعبي (ص٢٣٠-٢٥٤) باختصار شديد.

الفصل الرابع

من ثمرات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

من ثمرات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

إنـه متى امتـلأ القلب من تعظيـم الله عَزَّوَجَلَّ ومحبتـه، فإنه يثمر في حيـاة المؤمن وأحواله ثـمارًا عظيمة يجدها في قلبه، وتظهر على لسـانه وجوارحه في الدنيا، كما تظهر هذه الثمار في ما يناله من الثواب العظيم يوم القيامة، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين.

وقد يدخل بعض علامات التعظيم ومظاهره التي سبق ذكرها في الفصل السـابق في الثمرات، ويصعب الفصل بينهما؛ ولهذا فسأكتفي هنا بما لم أذكره في الفصل السابق ولا سيما تلك الثمار التي تمس أعمال القلوب وأحوال المؤمن الإيمانية والنفسية.

الثمرة الأولى: قوة الإيمان واليقين وتحقيق التوحيد:

إنه متى امتلأ القلب من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله والتذلل له، كلما قـوي الإيمان واليقين ووجه العبد وجهته ومحبته وعبوديته لله تعالى لا شريك له ولا ند له، ويتخلص ويتبرأ من الشرك صغيره وكبيره، ولا أدل عـلى ذلك من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام، ومن تبعهم مـن الأوليـاء والصالحين، فكل قصصهـم ومواقفهم يظهـر فيها قوة

إيمانهـم ويقينهم بالله عَزَّوَجَلَّ النابعة مـن غاية تعظيمهم لله تعالى، وغاية حبهم له سبحانه، والمتدبر في سيرهم في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ يرى عظم صبرهم وشجاعتهم وثباتهم وتوكلهم على الله عَزَّوَجَلَّ، واستهانتهم لما لاقوه من الأذى والابتلاء وتحديهم لأقوامهم، وما ذاك إلا من قوة إيمانهم ويقينهم، التي أثمرتها معرفتهم بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا، التي ملأت قلوبهم تعظيمًا له سبحانه ومحبة ويقينًا.

إن الإيمان ليس مجرد المعرفة والإقرار والتصديق، بل لا بد معها من تعظيم الله تعالى ومحبته والإخلاص له، والمعرفة التي هي إيمان هي معرفة تعظيم الله وإجلاله وهيبته ومعرفة محبة وإخلاص لله تعالى، وبدون ذلك فهي معرفة لا تنفع صاحبها، ولا تدخله في الإيمان.

الثمرة الثانية: محبة الله عَزَّوَجَلَّ وتقديم محابه سبحانه على جميع المحاب.

إن معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بأنه العظيم الذي يستحق التعظيم من جميع الوجوه، فهو العظيم في ذاته، العظيم في أسمائه وصفاته، عظيم العفو والرحمة، وعظيم الغنى والجود والبر والكرم، عظيم القوة والعزة والقدرة، عظيم في حكمته وفضله وعدله، إن من له هذه الصفات العظيمة جدير بأن يحب الحب كله، وأن تكون جميع المحبوبات المخلوقة تبعًا لمحبته متأخرة عنها. فالمعظم لربه تعالى لو تعارضت محبة الله عَزَّوَجَلَّ عنده مع ما سواه من المحاب قدم محبة الله عليها، ولو

تعارضت طاعة الله عَزَّوَجَلَّ مع طاعة غيره قدم طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ومرضاته على طاعة من سواه ولو سخطوا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، ولقد أحسن من قال:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب[(١)]

والمحب الصادق يميل إلى ما يوافق محبوبه، ولا يقدم على محابه شيئًا من المحبوبات، ولم يعظم الله عَزَّوَجَلَّ من قدم حب غيره ومحابه على حب الله عَزَّوَجَلَّ ومحبوباته، أو من قدم طاعة المخلوق على طاعته، أو من قدم قول المخلوق على قوله عَزَّوَجَلَّ.

الثمرة الثالثة: خشيته سبحانه والخوف منه وحده.

إن من عرف الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا عرف عظمته سبحانه في قدرته وانتقامه وعقوبته وسعة سمعه وعلمه وبصره لكل المسموعات وكل المبصرات، وكل ما تكنه الضمائر والصدور، وإن هذه المعارف الجليلة لا بد أن تثمر في القلوب والأبدان خشية

الله عَزَّوَجَلَّ والخوف منه سبحانه والوجل من عقابه عند عصيانه، وذلك بما ينتقم به سبحانه ممن عصاه في الدنيا أو في الآخرة. وكلما كان العبد بالله أعرف كان لله أخشى وأخوف، كما قال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»(١)، وها هم ملائكة الله الكرام عليهم الصلاة والسلام لما كانوا أقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأعرف المخلوقات بالله سبحانه وعظمة أوصافه، كانوا أخشى لله تعالى وأخوف من غيرهم من المخلوقات على عظم خلقهم وشدة قوتهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصفهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال سبحانه عن شدة خوفهم وخشيتهم لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقد فرق بعض أهل العلم بين الخوف والخشية، فقالوا: إن الخشية هي خوف مصحوب بتعظيم وإجلال، وهذا لا يكون إلا لله تعالى، قال سبحانه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، وأما الخوف فالغالب أنه بلا تعظيم للمخوف

(١) البخاري (٢٠).

كالخوف من الحيوان المفترس والحية والعقرب والعدو الصائل، فكل هذا من الخوف الفطري الجبلي الذي لا يؤاخذ فاعله، فإذا كان معه تعظيم وتوقير فإنه يتحول إلى خشية، وحينئذ يكون فيه نوع من العبودية للمخوف، ومثل هذا يؤاخذ العبد عليه، وقد يصل بصاحبه إلى الكفر والشرك، إذا آل ذلك إلى عبادة غير الله خوفًا وتعظيمًا، وقد يكون محرمًا إذا كان سببًا في فعل المحرمات وترك الواجبات.

ومن خوف الله عَزَّوَجَلَّ الذي يثمره تعظيمه سبحانه الخوف منه سبحانه في الغيب والسر، كما وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٤].

ومن ذلك دعاؤه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة**»(١).

فمن عظم غير الله عَزَّوَجَلَّ حتى خافه خوف السر والغيب فقد أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، لأنه اعتقد في المخلوق أنه يراه ويسمعه ويعلم سره ولو كان غائبًا عنه، وهذا لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

وحقيقة الخشية من الله عَزَّوَجَلَّ وكمالها أن يترك العبد محارم الله عَزَّوَجَلَّ، ويأتمر بأوامره محبة وتعظيمًا له سبحانه لا عن رغبة ورهبة

(١) النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني في المشكاة (٢٤٩٧).

فحسب، ولا عن تقليد وعادة تعود عليها العبد، يعملها كل يوم دون استشعار لعظمة المعبود وجلاله ومحبته.

الثمرة الرابعة: الهيبة والحياء منه سبحانه.

الحيـاء خلق عظيم، يبعثه معرفة الله عَزَّوَجَلَّ بأسـمائه الحسـنى وصفاته العـلا، ومن أبرز هذه الأسـماء اسـمه سـبحانه العظيم والكريـم، والبر، والرحيـم، واللطيـف، والغفور، والمنـان والودود، والوهـاب والعليم، والسميع والبصير، فبقدر ما تتمكن هذه الأسماء وأمثالها من قلب العبد، إلا وتظهـر آثارهـا على أحواله وأخلاقه وسـمته وهديه، ومـن أبرز هذه الأخلاق خلق الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ العظيم الحليم الرحيم الودود السميع البصير، فيسـتحي العبد من ربه الذي له هذه الصفات ويهابه، ومثل هذا الحيـاء هو الذي يحجز العبد عن الآثام الباطنة والظاهرة. ويجعله سـاعيًا في مرضاة الله وطاعته، والحياء ثمرة من ثمار التعظيم والمحبة لله عَزَّوَجَلَّ.

عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استحيوا من الله حق الحياء**» قال قلنا: يا نبي الله إنا لنستحي والحمد لله، قـال: «**ليس ذلك، ولكن الاسـتحياء من الله حق الحياء، أن تحفظ الـرأس وما وعـى، وتحفظ البطن ومـا حوى، ولتذكر المـوت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد اسـتحيا من الله حق الحياء**»[(١)].

(١) الترمذي (٢٤٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٣٨).

ويقول الإمام محمد بن نصر المروزي في كتابه تعظيم قدر الصلاة: «إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له، فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه، وذكر المقام غدا بين يديه وسؤاله إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه، وذكر دوام إحسانه إليه وقلة الشكر منه لربه، فإذا غلب ذكر هذه الأمور على قلبه هاج منه الحياء من الله، فاستحى من الله أن يطلع على قلبه، وهو معتقد لشيء مما يكره أو على جارحة من جوارحه تتحرك بما يكره، فطهر قلبه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه»[(١)].

ثم ساق بسنده بعض الآثار في الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ منها:

- عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه إلى قوم، فقال: يا رسول الله أوصني، قال: «**افش السلام، وابذل الطعام، واستحي من الله استحياءك رجلًا من أهلك، وإذا أسأت فأحسن، ولتحسن خلقك ما استطعت**»[(٢)].
- وعن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله أوصني. قال: «**أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي رجلًا صالحـًا من قومك**»[(٣)].

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٢٦).
(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٢٦).
(٣) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٢٨)، ورواه البزار (٧/ ٨٩ رقم٢٦٤٢).

- قال أبو عبدالله: «ألست ترى أن الإنسان إذا علم أن رجلًا صالحًا ينظر إليه أو يسمع كلامه، أمسك عن كل ما يخاف أن يمقته عليه أو يضع من قدره عنده، ولو علم أنه يطلع على ما في ضميره لما أضمر إلا على ما يعلم أنه يحسنه عنده ويجمل، وكذلك يستحي من الرجل الصالح من كل نقص في فضل»(١).

- ولما حضرت الأسود بن يزيد الوفاة بكى، فقيل له: «ما هذا الجزع؟! قال: ما لي لا أجزع، ومن أحق بذلك مني، والله لو أتيت بالمغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ لهمني الحياء منه مما قد صنعته، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يزال مستحيًا منه»(٢).

- وقال بعض السلف: «خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي من الله على قدر قربه منك»(٣). وهنا كلام نفيس للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مفهوم الكبيرة والصغيرة من الذنوب، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وها هنا أمرٌ ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف، والاستعظام لها ما

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٢٨).
(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٠٣).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦).

يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر. بل يجعلها في أعلى المراتب، وهذا أمرٌ مرجعه إلى ما يقوم بالقلب. وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره»(١).

- ويقول في موطن آخر: «الصبر على المعصية ينشأ من أسباب عديدة:

أحدها: علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها، وأن الله إنما حرمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها، ولو لم يعلق عليها وعيد العذاب.

السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه، فإن العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه، وأنه بمرأى منه ومسمع، وكان حييًّا استحى من ربه أن يتعرض لمساخطه... »(٢).

ثم ذكر بعدها أسبابًا أخرى، أكتفي بما نقلته هنا لمناسبته لموضوع الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢٨).
(٢) طريق الهجرتين (١/ ٤٠٨).

فلا عظم الله عَزَّوَجَلَّ من لم يستحي من الله عَزَّوَجَلَّ في خلواته، لأنه على قدر تعظيم الله في القلب يكون الخوف والحياء منه سبحانه، فمن هان عليه أمر الله فعصاه وهان عليه نهيه فارتكبه، واستخف بنظر الله واطلاعه عليه وهو في قبضته، وراقب المخلوق أكثر من مراقبة الخالق، فإن هذا يدل على قلة حيائه من ربه، الناشئ من ضعف تعظيمه له سبحانه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾[النساء: ١٠٨]، ولا يعني أن أولياء الله المعظمين له سبحانه لا يذنبون. كلا، ولكنهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠١]، فهم لا يصرون على المعصية، بل يبادرون إلى التوبة منها، ويشعرون بالألم والحزن، وكأن فوقهم جبلًا يخشون سقوطه عليهم، وأما العبد المستخف بعظمة ربه واطلاعه، فإنه ينظر إلى المعصية وكأنها ذباب وقع على أنفه فأزاله بيده، وكلما ضعف تعظيم الله في القلب قل الحياء منه سبحانه، حتى يصل بصاحبه إلى المجاهرة بالمعصية والتباهي بها، وهذا غاية الوقاحة والخذلان وعدم الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ أو من خلقه.

الثمرة الخامسة: التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ وحسن الظن به سبحانه والثبات أمام الشدائد.

ويكفينا في التدليل على هذه الثمرة خمس آيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، يتبين لنا فيها أثر معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه في قوة التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، وحسن الظن به والثقة في كفايته، وذلك مما قصه الله عَزَّوَجَلَّ عن أنبيائه ورسله، وقوة توكلهم عليه سبحانه، وتحديهم لأقوامهم وتهديداتهم.

الآية الأولى: ثناؤه سبحانه على نبيه ورسوله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

الآية الثانية: ثناؤه سبحانه على نبيه ورسوله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤- ٥٦].

الآية الثالثة: قوله عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في محاجته لقومه: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

ومن عظيم توكله على ربه سبحانه أن واجههم وحطم أصنامهم، وهو واحد وهم كثير، وحاولوا إحراقه بإلقائه في النار المسعرة، فنجاه الله منها بصدق توكله على ربه سبحانه، وعظيم محبته وتعظيمه وإخلاصه لربه سبحانه، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠]، روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقي في النار. وقالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾» [آل عمران: ١٧٣][(١)].

الآية الرابعة: قوله عن نبيه ورسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما هدد فرعون قومه وخوفهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

الآية الخامسة: ثناؤه على نبيه ورسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٥، ١٩٦]، وثباته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار

---

(١) البخاري (٤٥٦٣).

وفي جميع الشدائد، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

والتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ يقوم على أمرين: غاية الاعتماد مع غاية الثقة. وعندما يمتلأ قلب المؤمن من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وعظمة قدرته وقوته، وكفايته يحصل الاعتماد التام على من هذه صفاته، فإذا اقترن هذا التعظيم بعظمة رحمته وبره ولطفه وإحسانه حصل غاية الثقة من توفيق الله وعونه ومدده. ومن غاية الاعتماد وغاية الثقة بتحقيق التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل الصادق على الله عَزَّوَجَلَّ ينشأ عنه أيضًا حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ واليقين بنصره وكفايته.

وسقوط عظمة المخلوق وخشيته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وهذا يثمر الثبات على الحق وعدم اضطراب صاحبه أمام الشدائد والتهديد، وقد سبق ذكر نماذج من أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ في ثباتهم على الحق وعدم المبالاة بتهديد أعدائهم وإرهابهم. ويحسن التذكير هنا بنموذج من نماذج الثبات على الحق بعد أن امتلأ القلب بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله ومحبته، ألا وهو ثبات سحرة فرعون وسجودهم لله عَزَّوَجَلَّ بعدما ظهر لهم الحق وعرفوا الله عَزَّوَجَلَّ وعظموه وأحبوه، وجردوا خوفهم ورجاءهم فيه سبحانه، فاستعلوا على تهديدات فرعون الطاغية لهم بقتلهم وتقطيع أيديهم

وأرجلهم من خلاف وصلبهم، فقالوا قولتهم العظيمة التي خلدها الله عَزَّوَجَلَّ عنهم، وجعلهم أسوة لمن بعدهم في الصدع بالحق والثبات عليه، قال الله عَزَّوَجَلَّ بعد تهديد فرعون لهم: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة»[١].

كما أن حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ يثمر في قلب المؤمن المعظم لربه المحب له الصبر والرضا بما يكتبه ويقدره سبحانه على عبده من المكروهات، حيث إن حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ يجعله يرى فيما يقضيه الله عَزَّوَجَلَّ من المكروهات رحمة وخيرًا للعبد المؤمن، فظاهرها مكروه ومزعج، ولكن في أعطافها الرحمة والخير والإحسان. وهذا مصداق قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير. وليس ذلك إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[٢].

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٠٣).
(٢) مسلم (٥٣١٨).

كما أن تعظيم العبد لربه فيما يقضيه من أحكامه القدرية وحسن ظنه به سبحانه، يجعله يعود باللائمة في نزول البلاء على نفسه، ويعلم أنه الظالم لنفسه، المستحق للعقوبة على ذنوبه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ منزه عن الظلم والعبث، وأن هذا من رحمة الله به حتى يتدارك أمره، ويصلح شأنه ويتوب إلى ربه.

الثمرة السادسة: الطمأنينة والسكينة والسعادة وذوق حلاوة العبادة والنشاط لها.

وذلك حينما يمتلأ القلب من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، فيطمئن إلى ربه وتتوحد وجهته إليه، فيسلم من الحيرة والاضطراب والقلق الذي يصيب من ضعف تعظيم الله في قلبه، وحل فيه من الشركاء المتشاكسون من يعظمهم ويخافهم ويرجوهم ولا يدري من يرضي منهم، فأصبح مشتت القلب وكان أمره فرطا، وقد ضرب الله عَزَّوَجَلَّ مثلاً لمن أسلم وجهه لله وحده تعظيمًا ومحبة وخوفًا ورجاء، ومثلًا لمن أسلم وجهه وقلبه لشركاء من دون الله عَزَّوَجَلَّ. فقال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية: «يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضًا فيه، وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه

توجيه، ولكل منهم عليه تكليف؛ وهو بينهم حائر، لا يستقر على نهج، ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة، التي تمزق اتجاهاته وقواه!

وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح (هل يستويان مثلًا؟) .. إنهما لا يستويان... ويعقب على هذا المثل الناطق الموحي بالحمد لله رب العالمين، الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار، وهم مع هذا ينحرفون وأكثرهم لا يعلمون»[(١)].

إذن فإن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ والتسليم له محبة وخوفًا ورجاءً، يثمر في القلب حلاوة ولذة وأنسًا، قد حرم منها من أعرض عن ربه سبحانه، ولم يقدره حق قدره، حيث يرحل من هذه الحياة وما ذاق حلاوة الإيمان فيها، وما شعر بقيمة الحياة فيها. وامتلاء القلب من تعظيم الله تعالى ومحبته والتذلل له يكسب العبد همة ونشاطًا للعبادة، وشعورًا بلذة أدائها وحلاوتها، وهذه عاجل بشرى المؤمن، حيث يدخله جنة الدنيا قبل جنة الآخرة. وجنة الدنيا هي السعادة القلبية واللذة الروحية والطمأنينة النفسية. وعن هذه الحياة يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاحرص أن يكون همك واحدًا، وأن يكون هو الله وحده، فهذا غاية سعادة العبد، وصاحب هذه الحال في جنة معجلة قبل جنة الآخرة،

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٤٩ - ٣٠٥٠).

وفي نعيم معجل كما قال بعض الواجدين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا: إنهم لفي عيش طيب. وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم أهل الجنة إلا هذا»(١).

وتعظيم الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يعطي العبادة روحها وجلالها ولذتها، وهو الذي يجعلها عبادة مقبولة خالصة صحيحة تامة الشروط والأركان، أما عبادة بلا تعظيم، فإنها كالجسد بلا روح، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وروح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد»(٢).

الثمرة السابعة: رقة القلب وخشوعه وبكاء العين.

إنه متى ما امتلأ القلب من تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبته وإجلاله، فإن ذلك يثمر وجلاً وانكسارًا ورقة في القلب، وخشوعًا في الجوارح، يظهر على العين ببكائها، وعلى اللسان باللهج بذكر الله تعالى، وعلى بقية الجوارح سكينة ووقارًا وبهاءً.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الانفال: ٢]، وقال

---

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص٣٠، ٣١). تحقيق: عبدالله المديفر.
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥).

سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]، وقال سبحانه عن أوليائه وأحبابه المعظمين له: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الاسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال سبحانه عن أثر عظمته وعظمة كلامه على عباده المؤمنين: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يذكر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: «**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(١)، قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لهذا الحديث: «السابع: رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، فهذا رجل يخشى الله في سره ويراقبه في خلوته، وأفضل الأعمال خشية الله في السر والعلانية، وخشيته الله في السر إنما تصدر عن قوة إيمان ومجاهدة للنفس والهوى، فإن الهوى يدعو في الخلوة إلى المعاصي، ولهذا قيل: إن من أعز الأشياء الورع في الخلوة، وذكر الله يشمل ذكر عظمته وبطشه وانتقامه وعقابه. والبكاء الناشئ عن هذا هو بكاء الخوف؛ ويشمل ذكر جماله وكماله

(١) انظر الحديث بتمامه في صحيح البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

وبره ولطفه وكرامته لأوليائه بأنواع البر والألطاف، لا سيما رؤيته في الجنة، والبكاء الناشئ عن هذا هو بكاء الشوق، ويدخل فيه -أيضًا- رجل ذكر أن الله معه حيثما كان، فتذكر معيته وقربه واطلاعه عليه، حيث كان، يبكي حياء منه، وهو من نوع الخوف أيضًا»(١).

وأحوال السلف في بكائهم من عظمة الله تعالى وخشيته كثيرة ومتنوعة، سبق ذكر شيء منها في الفصول السابقة.

الثمرة الثامنة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ للمعظمين له، ورحمته بهم، ونصرته لهم ورضاه عنهم.

إنه على قدر تعظيم العبد لربه سبحانه تكون رحمة الله عَزَّوَجَلَّ له الرحمة الخاصة، التي تتمثل في هدايته سبحانه وتوفيقه وتسديده ومعيته لعبده وتفريج كرباته، هذا في الدنيا وما أعده الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين المعظمين له من الرضوان وجنان النعيم أعظم وأكبر، وقد قص الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه خبر أنبيائه المحبين والمعظمين له، الذين نالوا محبته ونصرته، وذلك كما في إنجائه سبحانه لخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من النار وكفلق البحر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ونصرته سبحانه لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار، وفي جميع غزواته وأحواله حتى أكمل الله به الدين وأزال به الكفر والشرك.

---

(١) فتح الباري، لابن رجب (٤/ ٦٣).

الثمرة التاسعة: كسب محبة الناس وتقديرهم وإلقاء القبول بينهم.

وهذا من عاجل بشرى المؤمن المحب المعظم المجل لربه، حيث يجازى من جنس عمله، فيلقي الله عَزَّوَجَلَّ له المحبة والمهابة والتقدير بين الناس، كما يلقي له القبول والاستجابة بينهم، ومع أن المحب لربه والمخلص والمعظم له يكره الشهرة والظهور بين الناس، إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ يظهره، ويجعله إمامًا محبوبًا مقبولاً عند الناس، وهذا من ثمار تقواه ومحبته وتعظيمه لله عَزَّوَجَلَّ.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه. فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: أن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[1].

الثمرة العاشرة: قبول الأعمال عند الله عَزَّوَجَلَّ بصلاح السريرة.

المعظم لربه سبحانه لا تجده إلا معظمًا لشرعه، متبعًا منقادًا لنصوص الكتاب والسنة، معظمًا لهما. كما أن تعظيمه ومحبته لربه سبحانه يأبى عليه أن يريد بعمله أحدًا غير الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا جماع صلاح السريرة، لأن متابعة الشرع والإخلاص لله تعالى هما الشرطان اللذان عليهما مدار قبول الأعمال عند الله عَزَّوَجَلَّ، وبضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

---

(١) البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

في القلب يضعف الإخلاص وتضعف المتابعة، وبضعفهما تفسد السريرة، ويتخلف قبول العمل عند الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، والمتقي هو من صلحت سريرته، وامتلأ قلبه من محبة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه وخوفه ورجائه والإخلاص له والانقياد لشرعه.

الثمرة الحادية عشرة: دعاء الله عَزَّوَجَلَّ والتضرع والانكسار بين يديه.

إن الصادق في تعظيم ربه سبحانه لا تراه إلا منكسرًا بين يدي ربه، متضرعًا له سبحانه، لاهجًا بذكره ودعائه، متبرئًا من الحول والقوة، سائلاً ربه أن يصلح له شأنه كله، وأن لا يكله إلى نفسه، ولا إلى أحد من خلقه طرفة عين، حتى لا يضيع ويهلك. والمتدبر لكلام الله عَزَّوَجَلَّ وما قص علينا فيه من أحوال أنبيائه ورسله وأوليائه يرى أنهم أكثر الناس دعاءً وانكسارًا وتضرعًا لله عَزَّوَجَلَّ، وذلك لمعرفتهم العظيمة بالله عَزَّوَجَلَّ، التي أثمرت في القلوب تعظيمًا وإجلالًا لربهم سبحانه، ظهرت آثاره في كثرة ذكرهم لله عَزَّوَجَلَّ ودعائهم وتضرعهم لله عَزَّوَجَلَّ. وأسوق فيما يأتي بعض الآيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ الدالة على آثار تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في قلوب أنبيائه في كثرة دعائهم له سبحانه، لأنه لا يطلب قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإقالة العثرات، إلا من العظيم الكبير: العظيم في رحمته، والعظيم في بره وإحسانه وجوده،

والعظيم في قدرته وقوته وعزته، والعظيم في علمه وحكمته، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن خليله إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتضرعه في دعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٩]، وقال عن نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧-١٢٠]، وأخبر عنه أيضًا بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وأخبر عن دعاء نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥،١٥٦]، وأخبرنا سبحانه عن مجموعة من أنبيائه وسؤالهم له سبحانه في آخر سورة الأنبياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ

إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣- ٩٠]، فإذا جئنا إلى أدعية نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتضرعه إلى ربه رأينا في ذلك الأمثلة الصادقة، والنماذج العظيمة في عبادته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانكساره وتضرعه وتذلله لربه سبحانه.

ونظرة فاحصة سريعة لما ثبت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأذكار وجوامع الدعاء التي كان يواظب عليها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داخل الصلاة وخارجها في أحوال اليوم والليلة، وفي غزواته وحله وترحاله، ترينا ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، الذي ملأ قلبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه، والذي أثمر في حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك العبوديات العظيمة والأدعية الجامعة الشرعية التي يدعو بها ربه سبحانه.

الثمرة الثانية عشرة: أمن الأسرة المسلمة وطمأنينتها وأمن المجتمع ورخاؤه.

إنه متى ما تحقق تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ وإجلاله وتعظيم حرماته في البيوت والأسر، فإن الطمأنينة والأمن النفسي والاستقرار الأسري والترابط بين أفرادها، يسود في أجوائها، وتسلم مما يكون في البيوت، التي لم يرب أهلها على تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ وتعظيم شعائره وحرماته،

حيث تنتهك حرمات الله، ويسود الظلم والقلق وقطيعة الأرحام في كثير منها، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ومثل هذا يقال أيضًا في المجتمعات التي تعظم الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظم شعائره وحدوده، وتعظم شريعته وتلتزم أحكامه فلا يحكم بين الناس إلا بها، ولا يتحاكم إلا إليها، ويرفض ما سواها. ومتى ما تحقق هذا فإن الأمن والتكافل والعدل والمحبة والترابط يعم أرجاء المجتمع، كما يعم الرخاء والعطاء المبارك من الله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، والعكس بالعكس كما هو الحاصل اليوم في كثير من مجتمعات المسلمين، حيث فشو الظلم والحسد والتقاطع والتدابر.

الثمرة الثالثة عشرة: التجافي عن الدنيا والإنابة إلى الله والدار الآخرة.

إن من ثمرة تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب تعظيم ما عظمه الله سبحانه ومحبة ما أحبه والحذر والتجافي عن كل ما أهانه الله عَزَّوَجَلَّ وحذر منه، وإن مما عظمه الله عَزَّوَجَلَّ وفخمه اليوم الآخر والدار الآخرة، وما أعد فيها من النعيم المقيم والعذاب العظيم، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ومما حذر منه سبحانه الدنيا وزخرفها والتنافس فيها وسماها متاع الغرور، وذلك

في قولـه سـبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، فالحاصـل أن التعظيم الصادق لله تعالى، لا بد وأن يثمر في القلب هذه الثمرة العظيمة، حيث لا يركن من امتلأ قلبـه من محبة الله تعالى وتعظيمه إلى هذه الدنيا الفانية، ولا يجعلها همه فـلا مكان لها في قلبـه، لأن الله حقرها وحذر منهـا، وإنما إنابته وهمته إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وما رغب فيه سـبحانه في الـدار الآخرة ودعا إليه، قال تعـالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يونس: ٢٥]، وقـال سـبحانه في وصـف الحيـاة الدنيا والآخـرة: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقـال سـبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

*****

الفصل الخامس

الأسباب الجالبة لتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

الأسباب الجالبة لتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ

إن أعظم نعمة ينعم بها الله عَزَّوَجَلَّ على عبده المؤمن أن يرزقه سبحانه أعظم الرزق وأحسنه، ألا وهو الإيمان واليقين الناشئين من امتلاء القلب من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله ومحبته وخوفه ورجائه. وما فقد العبد شيئًا إذا ذاق طعم هذا الإيمان وحلاوته، وما وجد شيئًا من فقد هذا الرزق وحلاوته، ولذا لا جرم كان حقًّا على العبد المؤمن الذي يحب لنفسه الخير والنعيم في الدنيا والآخرة أن يسعى جاهدًا في الأخذ بالأسباب الشرعية، التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ بابًا ووسيلة لتعظيمه سبحانه وإجلاله ومحبته وإخلاص العبودية له وحده لا شريك له.

ومن أهم هذه الأسباب:

السبب الأول: دعاء الله عَزَّوَجَلَّ وصدق الطلب منه سبحانه للفوز بهذه النعمة.

إن دعاء الله عَزَّوَجَلَّ والتضرع بين يديه وسؤاله وحده صدق الإيمان والتعظيم والمحبة له سبحانه، لهو أعظم الأسباب في الفوز بهذه النعمة، لأن منة الإيمان واليقين الناشئين من معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه ومحبته، لا يملكها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي يقلب القلوب،

ويثبتها على الإيمان بفضله، ويزيغها إن شاء بعلمه وحكمته وعدله. ولا يملك ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل. لذا وجب سؤال هذه النعمة العظيمة من مالكها ومسديها سبحانه بصدق وإخلاص، والله عَزَّوَجَلَّ لا يرد دعاء من دعاه، وهو يعلم صدقه وإخلاصه في طلبه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والمتدبر لأدعية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الواردة في القرآن الكريم، وكذلك جوامع الكلم في كثير من أدعية الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ليرى ذلك جليًّا في أدعيتهم عليهم الصلاة والسلام، وأذكر هنا بعض هذه الأدعية على سبيل المثال لا الحصر:

- قول نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في دعائه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فهنا نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ استعاذ بربه من سؤاله عَزَّوَجَلَّ بغير علم، وهذا من تعظيمه لربه سبحانه، ثم سأل ربه معظمًا وخائفًا منه سبحانه أن يغفر له ما بدر منه من سؤاله ربه لابنه.
- قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

- تعظيم موسى عليه الصلاة والسلام لربه بعد أن تجلى ربه للجبل فجعله دكًّا: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ودعاؤه عليه الصلاة والسلام وتعظيمه لربه وخوفه منه يوم أخذت السبعين رجلًا من قومه الرجفة، فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٥، ١٥٦].

ومن جوامع أدعية نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله في دعائه: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا**»(١).

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سلوا الله العافية واليقين في الآخرة والأولى**»(٢).
- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأسألك قلبًا سليمًا ولسانا صادقًا**»(٣).
- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين**»(٤).

---

(١) الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٣).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٧٩٢)، وصححه الألباني في كتاب الإيمان لابن تيمية.
(٣) رواه الترمذي (٣٤٠٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٣٨)، والحاكم (١/ ٦٨٨ رقم٩٤)، وقال: صحيح على شرط مسلم.
(٤) أحمد (١٥٤٩٢).

- وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»[(١)].

والحاصل: أن دعاء الله عَزَّوَجَلَّ وسؤاله قوة الإيمان واليقين من أعظم الأسباب الجالبة لتعظيمه سبحانه في القلوب، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يملأ قلوبنا من تعظيمه وإجلاله ومحبته والخوف منه والرجاء في ثوابه وحسن الأدب معه عَزَّوَجَلَّ، كما نسأله سبحانه العافية واليقين، وأن يذيقنا طعم هذا التعظيم والإيمان واليقين.

السبب الثاني: العلم بالله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وآثارها.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن منزلة التعظيم: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب وأعرف الناس به أشدهم له تعظيمًا واجلالا»[(٢)].

ومعرفة الله عَزَّوَجَلَّ لا تتم إلا بمعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلا سبحانه، كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ثم التعبد له سبحانه بموجباتها من المحبة والتعظيم والإخلاص والخوف والرجاء وغيرها من أعمال القلوب.

(١) النسائي (١٣٠٥)، وحسنه الألباني.
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥).

يقول العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الإنسان إذا سمع وصفًا وصف به خالق السموات والأرض نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليملأ صدره من التعظيم، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون القلب منزهًا معظمًا له جَلَّ وَعَلَا، غير متنجس بأقذار التشبيه... »[1].

وقال بعض السلف: «من عرف الله أحبه على قدر معرفته به وخافه ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه، وأجله وعظمه على قدر معرفته به»[2].

ويقول السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء والعظمة والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه»[3].

والمقصود: أن تعظيم الله تعالى لا يكون إلا بعد معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وأفعاله الجليلة الجميلة.

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٣٦).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٣٩).
(٣) تفسير السعدي (ص٩٤٦).

وعظمة الله عَزَّوَجَلَّ شاملة لجميع صفاته، وهي في ذروة الكمال والجلال، فهو عظيم في قدرته، وعظيم في حكمته، وعظيم في كبريائه، وعظيم في لطفه ورحمته، وعظيم في عزته وقوته وقهره، وقل ذلك في بقية أسمائه وصفاته. وأشد الناس تعظيمًا لله تعالى أعرفهم به سبحانه، ولذا نرى أن الملائكة والنبيين هم أشد تعظيمًا وإجلالًا وخوفًا ومحبة من غيرهم. ومعرفة الأسماء الحسنى هي مدخل التعريف بالله ربًّا، وهي كذلك مدخل التعريف بالله إلهًا واحدًا. كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، إن جماع توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية إنما ينشأ من إثبات الأسماء والصفات لله رب العالمين إثبات إيمان وتسليم من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تكييف، فهو تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ولذا كان أسعد الناس بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ هم أهل السنة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، حيث أثبتوا لله عَزَّوَجَلَّ ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات، وتعبدوا له سبحانه بها. وحرم من هذه المعرفة من انحرف عن هذا المنهج من أهل البدع والتأويلات الباطلة والتعطيل والتشبيه، فضعف تعظيم الله في قلوبهم، وعاشوا في حيرة واضطراب.

والحاصل: أن من أعظم الوسائل التي تستجلب بها عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وتمكنها من القلوب معرفة أسمائه سبحانه الحسنى وصفاته العلا، ومعرفة معانيها وثمراتها، ودعاء الله عَزَّوَجَلَّ بها، والتعبد له سبحانه بها.

السبب الثالث: تدبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

إن من أعظم وسائل تعظيم الله تعالى في القلوب تدبر القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وإن المتأمل في سور هذا الكتاب العظيم وفي آياته ليرى أنها تنطق بالتعظيم والتمجيد والتحميد والتسبيح لله عَزَّوَجَلَّ، كما يرى في مواطن أخرى آيات تظهر فيها عظمة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه وأمره وشرعه.

ومن المواطن التي تثمر تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في النفوس في آيات الكتاب الكريم المواطن التالية:

الموطن الأول: تلكم السور التي افتتحها الله عَزَّوَجَلَّ بقوله سبحانه (الحمد لله) وكذلك السور التي افتتحها تعالى بقوله: (سبح لله)، (يسبح لله). ولا تكاد تخلو آية من آيات هذا الكتاب الكريم من ذكر

لاسم أو أكثر من أسماء الله الحسنى، التي تدل على عظمته سبحانه، وعظمة الوصف الذي تضمنته هذه الأسماء الحسنى، ولذا وصف الله عَزَّوَجَلَّ كتابه الكريم بالعظمة، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ثم ذكر بعد هذه الآية موجبات هذا الخشوع والتصدع من الحجارة الصماء، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وإذا تدبر المسلم هذه الآيات المتضمنة لذكر أسماء الله الحسنى وفهم معانيها، فإنها تثمر في القلب تعظيمه سبحانه وإجلاله، كما ذكر ذلك في الوسيلة السابقة. وهذا لا يتأتى إلا من تدبر آيات القرآن الكريم.

الموطن الثاني: تلك المواطن من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ التي ينبهنا الله عَزَّوَجَلَّ فيها على خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وعجائبه، وما في ذلك من عظيم صنع الله عَزَّوَجَلَّ ودقته ونظامه وحكمته ولطفه وإحسانه وقدرته وعزته ورحمته، والآيات التي يأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ فيها بالتفكر في خلق الكون والأنفس كثيرة، وهي بلا شك تنمي عظمة

الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله ومحبته وخوفه ورجاءه في القلوب، لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١،٢٠]، وقوله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، والوقوف على عظمة خلق هذه المخلوقات، تدل على عظمة الخالق لهذه المخلوقات وكمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته ولطفه وقهره، فكلما أدمن العبد الفكر في هذه المخلوقات في الآفاق وفي الأنفس، وما فيها من العظمة والحكمة والقوة والقدرة، أحدث هذا في قلبه تعظيمًا وإجلالًا ومحبة لله عَزَّوَجَلَّ، ولا سيما إذا استحضرنا أن هذه المخلوقات العظيمة خاضعة ذليلة منقادة لربها سبحانه، وقد مر بنا في فصل سابق ذكر شيء من هذه الآيات في الآفاق والأنفس، ولولا خشية الإطالة لنقلت ما ذكره أهل العلم في القديم والحديث عن تفاصيل آيات الله عَزَّوَجَلَّ في الآفاق والأنفس، وما فيها من العظمة والدقة والحكمة والقدرة، ولكني أكتفي هنا بالإحالة إلى الكتاب النفيس للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والمسمى (مفتاح دار السعادة)، ففيه البغية للمستزيد.

وكم هي الآيات العظيمة التي يدلنا الله عَزَّوَجَلَّ عليها في كتابه الكريم، مما يملأ القلب رهبة وتعظيمًا وإجلالًا له سبحانه، ولكن تكرار ذلك أمام الحس والنظر جعلها مألوفة، فتعطل أو قل التفكير والتأمل في كونها آيات عظيمة، توقظ الحس، وتملأ القلب رهبة وتعظيمًا لخالقها سبحانه، ولكن ما إن ينتقل الحس من إلف العادة والتكرار إلى التفكير الجاد في هذه الآيات العظيمة حتى يكون له شأن آخر.

يصف الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جانبًا من عظمة مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، الدالة على عظمة الله تعالى، وذلك في بعض أسفاره، فيقول: «عرض لي في طريق الحج خوف من العرب، فسرنا على طريق خيبر، فرأيت من الجبال الهائلة والطُّرق العجيبة ما أذهلني، وزادت عظمة الخالق عَزَّوَجَلَّ في صدري، فصار يعرض لي عند ذكر الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها.

فصحت بالنفس: ويحك! اعبري إلى البحر، وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر، تشاهدي أهوالًا هي أعظم من هذه.

ثم اخرجي إلى الكون والتفتي إليه؛ فإنك ترينه بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كذرة في فلاةٍ.

ثم جولي في الأفلاك، وطوفي حول العرش، وتلمحي ما في الجنان والنيران.

ثـم اخرجي عـن الكل، والتفتـي إليه؛ فإنك تشـاهدين العالم في قبضة القادر، الذي لا تقف قدرته عند حد.

ثـم التفتي إليك، فتلمحـي بدايتك ونهايتـك، وتفكري فيما قبل البداية، وليس إلا العدم، وفيما بعد البلى، وليس إلا التراب.

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى؟!

وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟!

بـالله لو صحت النفوس عن سـكر هواها لذابـت من خوفه، أو لغابـت في حبـه؛ غير أن الحس غلب فعظمت قـدرة الخالق عند رؤية جبل، وإن الفطنة لو تلمحت المعاني لدلت القدرة عليه أوفى من دليل الجبل»(١).

الموطـن الثالـث: مـا تضمنـه القـرآن الكريـم من هـذه الشريعة العظيمـة العادلـة الحكيمـة الرحيمـة، التي ما من خـير إلا دعت إليه ودلـت عليه، ولا من شر إلا نهـت عنه وحذرت منه، فكفلت للناس مصالحهـم، وجلبـت الخير لهـم في دنياهـم وأخراهـم، والمتأمل لهذه الشريعـة العظيمـة ومـا فيها مـن الأحـكام والتشريعات، التـي تبهر العقول في حسـنها وشمولها وكمالها وعدالتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، يسـتدل بذلك على عظمة منزلها ومشرعها، الذي له صفات

(١) صيد الخاطر (ص٢٧٥، ٢٧٦).

الكمال والجلال والجمال والعظمة، حيث جاءت شريعته سبحانه متصفة بصفات منزلها سبحانه العليم الحكيم اللطيف الخبير العزيز الرحيم، ومثل هذا التأمل والتدبر يقود صاحبه إلى تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وحمده وتنزيهه ومحبته وإجلاله.

الموطن الرابع: ما تضمنه كتاب الله العظيم من أخبار ملائكته وأوليائه من النبيين والصديقين العارفين المعظمين لله عَزَّوَجَلَّ، المخبتين له الخائفين الراجين له سبحانه، الذي قال عنهم سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الاسراء: ٥٧]، وقال عنهم أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٨].

فالعيش مع هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن الكريم تثمر في القلب تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك بالتأسي بأحوال أنبيائه وأوليائه سبحانه، الذين أكثر الله من ذكرهم عبرة لمن بعدهم: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ [يوسف: ١١١].

وفي المقابل تدبر ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم من عظيم عقوبته وأليم عذابه، الذي أنزله بالقوم المكذبين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائه، وصدوا عن سبيله، فإن تدبر هذه المثلات في تدمير

أعدائه وأعداء رسله، يثمر تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ والخوف منه واليقين بوعده، وتعظيم حرماته وأوامره ونواهيه، قال الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن قص علينا خبر أنبيائه في سورة هود وإنجائه لعباده المؤمنين، وإهلاكه للقوم الكافرين: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٣].

الموطن الخامس: المواطن التي يذكرنا الله عَزَّوَجَلَّ فيها عظيم نعمته علينا وسعة رزقه وغناه وجوده وكرمه. إن التفكير في نعم الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة الدينية منها والدنيوية تثمر في القلب تعظيم مسديها ومحبته وإجلاله واللهج بذكره وشكره وحمده والثناء عليه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، وهو مع عظيم نعمته على خلقه، فهو عظيم الحلم والمغفرة لعباده على ظلمهم وكفرهم لنعمه، إن تدبر مثل هذه الآيات ليثمر في القلوب الحية تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته وتسبيحه وتحميده وخوفه ورجائه.

الموطن السادس: المواطن التي فيها آيات الوعد والوعيد والبعث بعد الموت واليوم الآخر، وما فيه من الأهوال والأحوال التي تظهر فيها عظمة الله عَزَّوَجَلَّ لكل ذي عين، حيث لا ملك يومئذ إلا لله، ولا أمر هنالك إلا أمره، ولا حكم إلا حكمه، توارى فيه كل عظيم وجبار في الدنيا ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣- ١٠٥]، إن تدبر مثل هذه المشاهد في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ليملأ القلب الحي تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ ورهبة وخشية وإجلالًا.

الموطن السابع: تلكم الآيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ التي أخبرنا فيها ربنا سبحانه بالخبر اليقين عن الآيات، والمعجزات الدالة على عظيم قدرته وقوته وقهره، وانقياد كل شيء لأمره وحكمته. إن تدبر هذه الآيات والمعجزات الباهرات، لتثمر في القلب الحي تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ورهبته والخوف منه والتوكل عليه وحده، لأنه القاهر لكل شيء، الذي إذا قال للشيء كن فيكون. وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه كثيرًا من هذه الآيات والمعجزات، التي أيد بها رسله وأولياءه، ودمر بها أعداءه المكذبين لرسله، ومن هذه الآيات إحياء الموتى، كما في قصة البقرة، وقصة الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، وقصة طيور إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقصة الألوف من بين إسرائيل، الذين قال لهم الله

موتـوا ثـم أحياهم، ومن هـذه الآيات آية عصا موسـى، وما فيها من العجائب وقصة أصحاب الكهف، الذين أنامهم الله عَزَّوَجَلَّ ثلاث مئة سنين، وازدادوا تسعًا، وقصة إنجاء الله عَزَّوَجَلَّ لخليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من النار وغيرها من الآيات والمعجزات.

إن تدبر مثل هذه الآيات ليملأ قلب المسـلم من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ ورهبته ومحبته وخوفه ورجائه، وذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا منهم.

والحاصـل: أن في تدبـر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وما فيـه من الآيات التي تثمـر تعظيـم الله عَزَّوَجَلَّ في القلـوب مـا يدفـع المؤمـن إلى العنايـة بهذا الكتـاب العزيز، الذي من تدبره بقلب حـي حاضر، فإن ذلك يقوده إلى إجـلال الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمـه ومحبتـه والإخلاص له سـبحانه، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومجاري هذه الفكرة تدبر كلامه، وما تعرف به سـبحانه إلى عباده على ألسـنة رسـله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزه نفسه عنه، مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه، وتدبر أيامـه وأفعالـه في أوليائه وأعدائه، التي قصها على عباده، وأشـهدهم إياهـا، ليسـتدلوا بها على أنه إلهم الحق المبين، الـذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شـديد العقـاب، وأنه غفـور رحيم، وأنـه العزيز الحكيـم، وأنه

الفعال لما يريد، وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة، لا يخرج شيء منها عن ذلك، وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر إلى آثار أفعاله»[١].

وأختم الحديث عن تدبر القرآن الكريم وأثره في تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله في القلوب، بذكر بعض الأسباب المعينة على التدبر منها:

أولًا: تصحيح النية.

يجب تصحيح النية في قراءة القرآن، وابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ومحاسبة النفس على العمل بالقرآن، والدعوة إليه، والحكم به، والتحاكم إليه، والرضى بحكمه.

عن عثمان وابن مسعود وأُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى، حتى يتعلموا ما فيها من العمل؛ قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا»[٢].

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أخوف ما أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: يا عويمر، أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت: علمت لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها: الآمرة هل ائتمرت؟ والزاجرة

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٥)، دار الكتب العلمية.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١/ ٣٩).

هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يُسمع»(١).

ثانيًا: فهم المعاني ودلالات الألفاظ والوقوف عند الآيات وإحضار القلب عندها.

وهذا أمر لابد منه لتدبر كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن رحمة الله تعالى وفضله: أن جعل كلامه ميسرًا للفهم والإدراك؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ولكن يبقى بعض الآيات تحتاج من المتدبر إلى فهم معانيها، والرجوع إلى كتب التفسير، وإلى أهل العلم، ليتجلى المعنى المراد منها، وليس العلم بمعنى الآيات مقصودًا لذاته، وإنما هو وسيلة لتدبر كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وإحضار القلب والفكر، والتأثر باطنًا وظاهرًا بمعاني كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ويلزم على هذا إحضار القلب عند سماع القرآن أو تلاوته حضور من يخاطبه القرآن، وتصور عظمة من تكلم بهذا القرآن، وعظمة مخلوقاته في الآفاق وفي النفس، الدالة على عظمته سبحانه وجلاله، وعلى أسمائه سبحانه وصفاته.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٣).

رسـوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ وذلـك أن تمـام التأثير لما كان موقوفًا عـلى مؤثر مقتـضٍ، ومحلٍّ قابـل، وشرط لحصول الأثـر، وانتفاء المانع الـذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشـارة إلى ما تقدم من أول السـورة إلى ههنا، وهذا هـو المؤثر. وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هـو المحل القابل؛ والمراد به القلب الحـي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]، أي: حي القلب. وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجه السـمع، وأصغى حاسـة سـمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيابه عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله. فإذا حصل المؤثر -وهو القرآن- والمحل القابل وهو القلـب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»(١).

ويقـول أحمد بن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي للتالي أن يسـتوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، فليعلـم عظمتـه ويتلمـح قدرته في

(١) الفوائد (ص٣).

كل مـا يريد، وإذا تلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نطفة متشـابهة الأجزاء كيف تنقسـم إلى لحـم وعظـم، ... وإذا تلا أحوال المعذبين، فليستشعر الخوف من السطوة، إن غفل عن امتثال الأمر... وينبغـي لتالي القرآن أن يعلـم أنه المقصود بخطـاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السـمر بل العبر، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود، وليتأمل الكتاب وليعمل بمقتضاه»[1].

ثالثًا: هجر المعاصي والذنوب والتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالطاعات.

فـإن مما يحول بين القلب وبـين تدبر كلام الله عَزَّوَجَلَّ كثرة الذنوب حتى يقسـو بهـا، ولا يجد لذة العبـادة والطاعة وقـراءة القرآن، وكلما تخفـف العبد من الذنـوب وتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالطاعات، كان حظه من تدبر كلام الله عَزَّوَجَلَّ والتأثر به أكثر وأعظم.

رابعًـا: خلـو القلب من هموم الدنيـا وعدم التعلق بما فيهـا من مال أو رئاسة أو صورة والتعلق بالدار الآخرة.

فـإن القلـب إذا امتلأ مـن الدنيا والاهتمام بهـا، وضعف فيه هم الآخرة والاستعداد لها، لم يكن فيه محل لتدبر كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فالتعلق بالآخرة وعدم الانشغال بالدنيا هو رأس كل خير.

---

(١) منهاج القاصدين (ص٥٣) باختصار.

خامسًا: سماع القرآن من قارئ حسن الصوت يخشى الله ويتقيه.

ثبت عنه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله**»[(١)].

السبب الرابع: كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ مع التدبر وكثرة الطاعات مع الخشوع والإخبات.

إن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ يمكن أن يكون ثمرة من ثمار التعظيم، وسببًا من أسبابه، فإذا تمكن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلب ظهر ذلك على الجوارح، ومنها ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من تسبيح وتحميد ودعاء وثناء، وقد مرت بنا هذه الثمرة في الفصل السابق، كما أن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ مع تدبر معاني الذكر والدعاء يقود إلى الاطمئنان بذكره سبحانه وقيام تعظيمه وإجلاله في القلب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، لأن مفردات الأذكار وألفاظها كلها تعظيم وتقديس وتحميد لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أكثر العبد من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بما ورد في السنة في أحوال اليوم الليلة وفي أداء العبادات المتضمنة لأذكار التكبير والتحميد والتعظيم كالصلاة والحج، وأداها بتدبر وخشوع كلما أحدث ذلك في قلب قائلها تعظيمًا وإجلالًا ومحبة لله عَزَّوَجَلَّ.

(١) ابن ماجه (١٣٣٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٠١).

السبب الخامس: مصاحبة المعظمين لله عَزَّوَجَلَّ المخبتين لـه، الذين إذا رؤوا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر»(١)، وقال أيضًا: «اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله»(٢). ففي هذه المجالس ترى القدوات في خوفهم من الله تعالى وتعظيمهم لـه، ولأوامره ونواهيه. ومن علامة توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للعبد أن يرزقه أصحابًا صالحين، معظمين لله تعالى، مخبتين لـه، تذكر رؤيتهم الله عَزَّوَجَلَّ، قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أخبركم بخياركم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**الذين إذا رؤوا**

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٩).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٤٩).

ذكـر الله تعـالى»، ثم قال: «**ألا أخبركم بشراركم المشـاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت**»(١).

ومما يلحق بهذا السبب القراءة في سير السلف الصالح، الذين ضربوا أروع الأمثلة في تعظيمهم لله تعالى، وخشـيتهم له ومحبتهم وإخلاصهم له عَزَّوَجَلَّ. وقد سـبق في فصل سـابق ذكر شيء من هـذه النماذج المؤثرة، ولا شـك أن القـراءة في سـيرهم وتراجمهـم رحمهم الله تعـالى لمن أعظم الأسباب في شحذ الهمم في اللحوق بهم والاقتداء بهداهم.

السـبب السادس: الإكثار من تذكير النفس المستمر بعظمة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحاسبتها على ذلك وتربية الأهل والأولاد على ذلك.

والتكثـير مـن طرحه، والحديـث في الكتب والمقـالات والدروس والمحـاضرات والخطـب والمحاضـن التربويـة والإكثـار مـن الأمثلـة والمشـاهد والقصص، التي تثمر تعظيـم الله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو أس أعمال القلـوب، حيـث إن كثـيرًا مـن أعمال القلـوب إنما هـي نابعة مـن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل والإخلاص، وهـو الذي يجعل من العبادة لذتها وحلاوتها، وهو الذي يقي من كثير من الشرور والآفات، التي تلم بالقلب من لمة الشـيطان، الذي لا يفتأ يفسـد القلوب بأمراض الشكوك والكبر والرياء والحسد والشحناء.

---

(١) مسند أحمد (٢٧٥٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٤٦).

السبب السابع: تذكر الثمرات اليانعة للتعظيم:

سبق في الفصل السابق ذكر بعض ثمرات التعظيم لله تعالى، التي من شـأنها أن تشحذ همة العبد المؤمن، وتدفعه إلى أن يحفل بهذا الأمر العظيم، فيربي نفسه ومن تحت يده على الاهتمام به علمًا وعملًا وحالًا، ويربي أهله وأولاده عليه، ويكثر من طرحه في المجالس والمناسبات.

*****

الخاتمة

الحمـد لله الـذي بنعمته تتم الصالحـات، وبفضلـه وتوفيقه تنال الهدايـات، وتحـل الرحمـات، فما بنا مـن نعمة فمنه وحـده. إن أطعناه وعظمناه فله المنة علينا، وإن عصيناه ونسـيناه فله الحجة علينا، نسأله المزيد من فضله وتوفيقه، ونستغفره من ذنوبنا وعثراتنا.

أحمده سـبحانه على عونـه وتوفيقه في إتمام هـذا البحث، الذي لم أوفه حقه وقدره، وهل يستطيع عبد أن يوفي حق الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه؟ ولكنه جهد المقل. أسـأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يمـلأ قلوبنا من تعظيمه ومحبته وخوفـه ورجائـه، وأن يجعلنـا من عبـاده المنيبين إليـه المخبتين له، كما أسـأله سبحانه أن ينفعني وإخواني المسلمين بهذا الكتاب، وأن يرزقنا الإخلاص والصواب.

وأود في هذه الخاتمة أن أسجل الوقفات التالية:

الوقفة الأولى:

ألخص في هذه الوقفة، أهم ما ورد في الكتاب من مباحث، فأقول وبالله التوفيق:

جاء الكتاب في مقدمة وخمسـة فصول. وذكرت في المقدمة تمهيدًا يبين أهمية هذا البحث والدوافع التي دفعت إلى إخراجه، وذكرت من

أهمها الضعف العام الذي نجده في قلوبنا في الأعمال القلبية، وعلى رأسها عبودية التعظيم والمحبة لله عَزَّوَجَلَّ، مما كان له الأثر في ضعف الإخلاص والخشوع في الصلاة، والجرأة على المعاصي والغفلة في ذلك عن تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيم حرماته، وقد أدى ذلك عند أهل النفاق والقلوب المريضة إلى الجرأة على نصوص الكتاب والسنة، والاعتراض عليهما، وكأنهما كلام مخلوق مثلهم، يؤخذ منه ويرد. بل إن ضعف تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ أو انعدامه في القلوب، هو الذي يؤدي اليوم إلى وقوع بعض أبناء الأمة في أمراض الشك والإلحاد.

وفي الفصل الأول: ذكرت بعض الآيات والأحاديث والآثار التي جاءت في الأمر بتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك من خلال النماذج من سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيرة أصحابه والتابعين لهم بإحسان، ظهر فيها تعظيمهم لله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمهم لشعائره وحرماته.

وفي الفصل الثاني: ذكرت فيه بعض مظاهر عظمة الله تعالى في ذاته وأسمائه وأفعاله وخلقه وأمره.

وفي الفصل الثالث: ذكرت بعض مظاهر وعلامات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ في القلوب، وذلك كتعظيم حرماته سبحانه، وتعظيم كتابه، وتعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته واتباعه، وتحكيم شريعته سبحانه، والغيرة على حرماته، والدعوة إلى دينه والجهاد في سبيله.

وفي الفصل الرابع: ذكرت أهم ثمرات تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أهمها السكينة والطمأنينة في القلب، والفوز برضى الله عَزَّوَجَلَّ وجنته، وكثرة ذكره وحمده، وتسبيحه والخوف، والحياء منه، والتوكل عليه سبحانه، والرضى بقدره والتسليم لحكمه.

وفي الفصل الخامس: ذكرت بعض الأسباب الجالبة لتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى رأسها دعاء الله سبحانه، وسؤاله الهداية، وتعظيمه والخوف منه، فلا مالك للهداية والتوفيق والثبات إلا الله عَزَّوَجَلَّ. ومن هذه الأسباب العلم بالله عَزَّوَجَلَّ، والفقه في أسمائه وصفاته وآثارها، والتعبد لله سبحانه بها، ومنها تدبر القرآن العظيم، وما فيه من الأمر بالتفكر في الآفاق والأنفس الدالة على عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك ما في القرآن من ذكر أسمائه الحسنى وآثارها، وما فيه من أخبار الغابرين، وما حل بهم من العقوبات الأليمة، وما فيه من نصره سبحانه لأنبيائه وإنجائه لهم، وإجراء الآيات والمعجزات على أيديهم، والتي تدل على عظيم قوته وقهره وعزته وحكمته ورحمته.

ومن هذه الأسباب مصاحبة المخبتين المعظمين لله تعالى والاقتداء بهداهم، ومن هذه الأسباب كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وتدبر المعاني العظيمة لهذه الأذكار، المتضمنة لحمد الله وتسبيحه وتعظيمه سبحانه، ومن هذه الأسباب التواصي بالإكثار من الحديث عن هذا العمل القلبي

العظيم وتربية النفس والأهل والأولاد عليه، وتكرار الحديث عنه في المؤلفات والدروس والمواعظ والخطب ومجامع الناس، وذلك لما نشعر به من ضعف شديد في هذا العمل القلبي العظيم في نفوسنا.

الوقفة الثانية:

تبين لي بعد الكتابة في هذا الموضوع المهم من موضوعات الاعتقاد والعمل: أن ما نعانيه اليوم من بعض السفهاء والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض من الاستخفاف ببعض جوانب الاعتقاد والتشريع في ديننا الحنيف، وجرأتهم على معارضتها، وإثارة الشبهات حولها، لم يكن لجهلهم بالأدلة ومدلولاتها، وإنما السبب في ذلك عند كثير منهم هو ضعف تعظيم الرب سبحانه في قلوبهم، أو خلوها منه، وحينها يزول العجب من صنيعهم ومواقفهم، لأن القلوب إذا خلت من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وعدم تقديره وتوقيره، فإن هذا المرض يقود ولا بد إلى الاستهانة بكل ما يجيء منه سبحانه من أخبار وأحكام، وتخلو القلوب بذلك من تعظيم كلام الله عَزَّوَجَلَّ وأوامره ونواهيه، ويجد هؤلاء الذين في قلوبهم مرض أنفسهم وقلوبهم جريئة في رد كل ما لا يوافق أهواءهم، والاعتراض عليها بكل صفاقة وقلة حياء وعدم تعظيم ولا مبالاة ولا خوف من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، هذا هو السبب الرئيس في مصيبة القوم العظمى، فهم غير معظمين

لله عَزَّوَجَلَّ، وذلـك بـما في قلوبهـم من أمراض الشـبهات والشـهوات، الأمـر الذي يحول بينهم وبين التسـليم والإذعـان والقبول لله عَزَّوَجَلَّ، ولما يبلغه الرسـول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عـن ربه. نسـأل الله عَزَّوَجَلَّ لهم الهداية قبل حلول آجالهم، كما نحمده سبحانه على العافية مما ابتلاهم الله به، ونسـأله الثبات على دينه والاستقامة على أمره حتى نلقاه. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

ولذلك أوصي من يواجه شبهات القوم واعتراضاتهم من الدعاة والمصلحـين، أن يبينوا قبـل الرد عليها بأن مصيبـة القوم عدم تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيـم كلامـه في قلوبهـم، وعـدم تسـليمهم لأخبـاره وأحكامه، إلا بما يوافق أهواءهم. يجب أن يبين للأمة حقيقة مصيبتهم، وأن يعرى للناس منهجهم الفاسد، وأن يدعو إلى التوبة والدخول في السلم كافة، دون أي اعتراض: بكيف ولماذا؟ إذ كيف يعترض مخلوق ضعيف حادث فانٍ ظالم جاهل على فاطر السموات والأرض، الذي له الكمال والجلال والحمد والثناء، المبرء من النقص والجهل والهوى، الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا وقهرًا وحكمة وقدرة وبرًّا وإحسانًا، أما أن يغفل عن هذه المصيبة العظمى عند القوم ويرد على شـبهاتهم، كـما لـو كان الأمـر خلافًا بين عالمين مـن علماء المسـلمين، أو يرد على مفـردات شـبهاتهم، التي لا تنتهي، وكأن الإسـلام في قفص الاتهام، فهـذا منهج خاطئ في الرد عـلى مثل هؤلاء السـفهاء والمنافقين، نعم

بعد أن يبين للناس فساد منهجهم ومنطلقاتهم، فلا مانع أن يرد على شبهاتهم حماية للناس من خطرها.

الوقفة الثالثة:

إنه لمن المناسب في نهاية هذه الرسالة، التي عنوانها: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، والتي موضوعها عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه، أن أتطرق لما سمعته من بعض الإخوان من صور مفزعة ممن قابلوه أو رأوه أو سمعوه في بعض (مواقع الشبكة العنكبوتية) من ظهور مواقف إلحادية تشكيكية، يتبناها قلة من شباب الأمة، خلت قلوبهم من معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتعظيمه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ووافق هوى في النفوس، أفرز لديهم بعض الشكوك والامتراء في بعض أصول الإيمان الستة: (الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر)، وإبراء للذمة، ونصحًا لمن وقع من شباب الأمة في هذه الملمة، أود تسجيل التقريرات الآتية:

التقرير الأول:

أنصح في هذا التقرير من وقع في هذه الآفة الخطيرة: أن يشعر أولًا بخطورة ما هو فيه، وأنه أمر كارثي، نهايته العذاب السرمدي يوم القيامة إن لم يتوبوا ويعرفوا لله عَزَّوَجَلَّ قدره وتعظيمه. إنهم بذلك

إنما يضرون أنفسهم، والله عَزَّوَجَلَّ غني عنهم وعن عبادتهم وإيمانهم. وأذكرهم قوله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزمر: ٧]، وكذلك قوله سبحانه عن أنبيائه صلى الله عليهم وسلم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، كما أذكرهم قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه سبحانه: «**يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا..** » الحديث(١).

التقرير الثاني:

إنه باستقراء أحوال الكثير من هؤلاء الذين مرضت قلوبهم، وثارت فيها الشكوك والاعتراضات والشبهات، فأصغوا إليها، واقترفوا بسببها ما هم مقترفون نجد أن أغلبهم وجلهم من أصحاب الشهوات الذين يرون أن الذين يحول بينهم وبين شهواتهم أو أنهم

(١) مسلم (٢٥٧٧).

قد مروا في حياتهم الاجتماعية بأمراض نفسية من القلق والاكتئاب، اضطرب بسببها تفكيرهم، وتشوشت بها عقولهم وفطرهم، وبدلًا من أن يعالجوا هذه الأمراض النفسية من جذورها بعلاج أسبابها، راحوا يسقطون معاناتهم على التشكيك في مسائل الإيمان والغيب، واستغل الشيطان الرجيم ضعفهم هذا، فأزهم إلى هذه الشكوك والشبهات أزًّا، وزينها لهم في عقولهم المشوشة. ولذا لا يمكن أن يوجد سوي في عقله وتفكيره وفطرته ونفسيته، ثم يميل إلى هذه الأمراض والشكوك، لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد أودع في الفطر والعقول السوية السليمة معرفته سبحانه وتعظيمه ومحبته وعبادته ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وقد ذكر الله سبحانه في كتابه الكريم، وفي أكثر من آية بأن كل من كفر فقد فسدت فطرته وألغى عقله، لأن العقل السليم والفطرة السليمة يهديان إلى الله عَزَّوَجَلَّ. قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

التقرير الثالث:

إن أصل الأصول في أركان الإيمان هو الإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فإذا استقر هذا

الإيـمان في القلب لزم عليه الإيمان بالملائكة والكتب والرسـل واليوم الآخـر والقدر، لأنها غيب أعلمنا الله إياه، فإيمانـنا به سـبحانه يقتضي تصديقـه عَزَّوَجَلَّ في أخباره كلها والإذعان لأحكامـه كلها، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقًـا في الأخبـار، وعـدلًا في الأحـكام. والمقصـود أن الإيـمان بـالله عَزَّوَجَلَّ هـو أصـل الأصـول، وبتحقيقه تتحقق بقية الأصـول والأركان، ولذا ففي هذا التقرير سـيكون التركيز على إثبـات وجود الله عَزَّوَجَلَّ وتفرده بالربوبية والألوهيـة وكمال الأسـماء والصفـات، وبقيـة الأركان تابعة لذلك. فأقول وبالله التوفيق:

إن الإيـمان بوجـود الله عَزَّوَجَلَّ، وتفـرده بالخلـق والأمـر، هو أمر مسـتقر في القلـوب والفطـر السـليمة، ولا يجـادل في ذلـك إلا مـن فسـدت فطرته، أو اضطـرب عقله بمؤثرات خارجيـة، بل إن الذين يجادلـون في ذلك يشـعرون بصراع داخـلي بين الفطـرة والعقل وبين أهوائهـم، كما قال عنهـم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمـل: ١٤]، ولذلـك فلن نطيل الـكلام في إثبات أمر تدل عليه الفطـرة والعقـل والحـس والسـمع، وأكتفي بـما قالـه الله عَزَّوَجَلَّ وهو يخاطـب عقول الجاحديـن، وذلـك في بضع كلمات بينـات ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. جاء في صحيح البخاري أن جبير بن مطعم قال: «سمعت

النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ قال: كاد قلبي أن يطير»[١]. أي لظهور الحق ووضوح بطلان الباطل. وتكفينا هذه الآية حجة عقلية على الملاحدة والدهريين، ولا حاجة لنا بعدها إلى كلام أهل الفلسفة والمنطق في ردهم على الملاحدة بواجب الوجود، وممكن الوجود، وغير ذلك من فلسفة علم الكلام وسفسطته.

إن الله عَزَّوَجَلَّ يخاطب عقولهم إن كان لهم عقول يفقهون بها، ويوقفهم أمام سؤالين كبيرين، ليجيبوا عليهما جوابًا صريحًا مقنعًا، لمن يحترم عقله وفطرته وإنسانيته:

فأما الأول: فقوله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي هل خلقوا وخلق هذا الكون من حولهم من غير خالق مريد عالم قادر حكيم، وإنما بمجرد الصدفة والموافقة العمياء تشكل هذا الخلق العظيم الدقيق المنتظم في الآفاق والأنفس؟!!

وأما الثاني: فقوله سبحانه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي إذا كانوا لا يقولون بأن هذا الخلق المنتظم المتناسق، الذي تبرز فيه الحكم الباهرة، لا يمكن أن يكون بغير خالق، فهل هم إذن الذين خلقوا أنفسهم والكون من حولهم؟!! وهذا ما لم يقل به أو يدعيه أحد من الخلق لا

(١) البخاري (٤٨٥٤).

في القديم ولا في الحديث، إذ كيف يخلقون أنفسهم وقد كانوا عدمًا؟ إذن بقي السؤال الأول، والجواب عليه، حيث يتبنى بعض المتكبرين المكابرين بأن هذا الخلق وجد هكذا بالصدفة من غير خالق، وأقسم بالله غير حانث أن هذا الفريق من الملاحدة غير صادقين وغير مقتنعين بما يجادلون فيه، إذ كيف يكون هذا الكون العظيم بنواميسه ونظامه الدقيق، وما فيه من الحكم الباهرة التي لا تصدر إلا من خالق عظيم مريد عالم قادر حكيم، كيف يكون هذا بمحض الصدفة والموافقة، بل لو نظروا إلى أنفسهم وعجائب خلقتها وما فيها من الأجهزة والأعضاء والأعصاب والعروق والعظام التي ركبها الله عَزَّوَجَلَّ بحكمة وانتظام وعمل دؤوب دقيق. هل كل هذا الخلق العظيم في الآفاق والأنفس جاء بمحض الصدفة؟!!

إنك لو قلت لهؤلاء القوم في مخلوق صغير من صنع الإنسان كصنع سيارة أو طائرة أو سفينة: إن هذه السيارة أو الطائرة أو السفينة خرجت علينا بمحض الصدفة قد تركب هيكلها ومحركاتها، وربط بعضها ببعض، وربطت أسلاكها بمصدر الطاقة فيها، كل ذلك تكونت أمامنا بمجرد الصدفة. لو قلت لهم ذلك لسفهوا عقلك، وردوا مزاعمك، فما بالهم ينكرون هذا في صنع صغير من صنع البشر ولا ينكرون ذلك في هذه المخلوقات العظيمة؟! إنه الهوى والمماحكة وإغواء الشيطان وهوى النفس.

وأنقـل هنا وبهذه المناسـبة كلامًا مفيدًا للمقـام في مناظرة جرت بـين ملحد حيران وبين عالم من علماء المسـلمين وهي مناظرة طويلة، لكنـي أنقـل هنا كلام الشـيخ للحـيران في موضـوع الصدفـة، وأنها متهافتة سـاقطة من أصلهـا عقليًّا وعلميًّا وشرعيًّا. قال الشـيخ: (إن حـظ المصادفة مـن الاعتبار يزداد وينقص بنسـبة معكوسـة مع عدد الإمكانيـات المتكافئـة المتزاحمة، فكلما قل عدد الأشـياء المزاحمة ازداد حـظ المصادفـة من النجاح، وكلما كثر عددها قـل حظ المصادفة. فإذا كان التزاحم بين شـيئين اثنـين متكافئين، يكون حظ المصادفة بنسـبة (واحـد ضد اثنين)، وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسـبة (واحـد ضد عـشرة)، لأن كل واحـد له فرصة للنجـاح مماثلة لفرصة الآخر، بدون أقل تفاضل طبعًا.

وإلى هنـا يكـون الحـظ في النجاح قريبًـا من المتزاحمـين، حتى لو كانوا مئة أو ألفًا، ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخمًا هائلاً، يصبـح حـظ المصادفة في حكـم العدم، بل المسـتحيل. ذلـك لأنه إذا اتفـق لصبي أعمى أن سـحب من صندوق فيه عـشرة أوراق مرقمة: الرقـم (١)، قلنـا: إن حـظ المصادفـة للرقم (١) تغلب عـلى الأعداد الأخـرى المتزاحمـة معه بنسـبة (واحد ضد عـشرة)، وأمـا إذا اتفق له أن سـحب العدديـن (١ و٢) بالتتابـع، قلنا: إن حـظ المصادفة للعدد الثاني هو بنسـبة (واحد ضد مئة)، لأن كلا من العشرة يزاحم (للرتبة

الثانيـة) ضد عـشرة، فيصبح التزاحـم بين مئة. وإذا اتفق أن سـحب الصبـي الأعمـى الأوراق الثلاث المرقمـة (١ و٢ و٣) عـلى التوالي، قلنا: إن حظ المصادفة بنسـبة (واحد ضد ألف)، لأن كلًّا من العشرة يزاحـم ضد مئـة، وهكذا. فـإذا افترضنا أن الصبي سـحب الأوراق العـشرة على ترتيـب أرقامها، فإن حظ المصادفة يصبح بنسـبة (واحد ضد عشرة مليارات).

ثم قال الشيخ للشاب الحيران: سأنقلك إلى ترتيب آخر في شكل آخر وأعداد أكثر:

لـو فرض أنك تملك مطبعـة فيها نصف مليون حـرف مفرقة في صناديقهـا، فجاءت هـزة أرضية قويـة قلبت صناديـق الحروف على بعضهـا وبعثرتهـا وخلطتها. ثـم جاءك منضد الحـروف يخبرك أنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني، فهل كنت تصدق؟

حيران: نعم أصدق.

الشـيخ: ولكن لو قال لك: إن الكلمات العشر تؤلف جملة كاملة مفيدة، فهل كنت تصدق؟

حيران: أستبعد ذلك جدًّا، كما استبعدته في مثال الورقات العشر السابق ذكره، ولكني لا أراه مستحيلًا.

الشيخ: ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكاملها كونت، عند اختلاطها، بالمصادفة، كتابًا كاملاً من (٥٠٠) صفحة ينطوي على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها ومغازيها، فهل كنت تصدق ذلك يا حيران؟

حيران: أبدًا، لا أصدقه يا مولاي.

الشيخ: ولماذا لا تصدقه يا حيران؟

حيران: لأني هنا أجد الاستحالة بديهية حقًّا.

الشيخ : ولماذا يا حيران؟

حيران: لا أدري يا مولاي، ولكني عندما أتصور أن الورقات العشر ألقيت على ترتيب أرقامها بالمصادفة، لا أجد وجه الاستحالة واضحًا وبديهيًّا، كما أجده في مثال الكتاب.

الشيخ: أتدري ما هو السبب في ذلك يا حيران؟

حيران: كلا يا مولاي.

الشيخ: السبب يرتكز على قانون المصادفة نفسه: فالتزاحم بين الورقات المرقمة يجري بين عشر ورقات على عشرة ترتيبات، فيجعل حظ المصادفة بنسبة واحد إلى عشرة مليارات، وهذه النسبة، على تفاوتها

الكبير، ليسـت من العظم، بحيث تُحدث لـك في عقلك تلك البداهة في إدراك الاستحالة. ولكن التزاحم بين حروف الكتاب يجري بين (٥٠٠) ألف حرف على تكوين (١٢٥) ألف كلمة تقريبًا، بأشـكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدًا. وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسـبة واحد ضد عدد هائل جدًّا جدًّا لو قلت عنه إنه مليار مليار مليار لكان قليلًا...

هذا في المطبعة وكلماته المحدودة المعدودة يا حيران، فما قولك في كتاب الله الأعظـم وكلماتـه التـي يقول عنها جلـت قدرتـه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ويقـول سـبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]؟

حيران: هل يعني مولاي بكتاب الله القرآن، وما فيه من كلمات؟

الشيخ: أرجو أن يكون فهمك للقرآن أسمى من هذا، وأعمق يا حيران، فكلمات القرآن التي بين دفتي المصحف محدودة معدودة، فلا يُعقل أن تحتاج كتابتها إلى مداد ينفد به ماء البحار، ولا إلى أقلام تنفد بها أشجار الأرض.

حيران: هذا والله، ما كنت أقوله في نفسي.

الشـيخ: كلا يا حـيران. وإنما عنيت بكتاب الله، هنـا، العالم كله، وعنيـت بكلـمات الله، كـما أراد الله، كل مـا في ملكـوت السـموات

والأرض من شيء محسوسٍ من عالم الخلق، أو معقولٍ من عالم الأمر، والذي لم يخلق إلا بكلمات ربي، وكيف تنفد كلمات ربي يا حيران وكل ذرة من مياه البحار وأشجار الأرض إنما تمت بكلمات ربي؟ بل كل ما في الكون من ذرات وعناصر ونظم وقوانين ونواميس، ونسب وروابط وعلائق، وأقدار وأحجام وأوزان، ومُدد وأوقات وأزمان، وصور وأشكال وألوان، وحركات وسكنات وأوضاع، وأجناس وأصناف وأنواع، كلها تمت بكلمات ربي... ثم تعال ندرس على ضوء (العلم والقرآن) بعض ما في هذا العالم من تقدير، واتزان، وتنظيم، وترتيب، وأحكام، وإتقان، لنعرف ما هو حظ المصادفة في تكوينه... ؟ وصدق الله العظيم، إذ يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ويقول سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨][1].

وبذلك يظهر تفاهة وسخافة عقول القائلين بأن هذا الكون في دقته المتناهية، وما فيه من الحكم الباهرة، إنما كان ذلك بمحض الصدفة والموافقة!! ووالله إنهم ليعلمون أنهم كاذبون متناقضون، ولكنهم هاربون من الله عَزَّوَجَلَّ، فماذا بعد الحق إلا الضلال، ولذلك رجع كثير من ملاحدة الفلاسفة عن القول بمبدأ المصادفة في خلق هذا الكون العظيم، وذلك عندما سفه الناس عقولهم، ووجدوا

(١) قصة الإيمان د. نديم الجسر (ص٢٩٣-٢٩٧) باختصار يسير.

أنفسهم متناقضين مضطربين، ولكنهم وبدلًا من أن يفروا إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويؤمنوا بوجوده وعظمته وصفاته العظيمة، فيعبدوه ويوحدوه اخترع لهم الشيطان فكرة خبيثة، فقالوا: إن لهذا الكون خالقًا مختارًا مريدًا قادرًا حكيمًا عليمًا، ولكنهم لما كانوا هاربين من الله عَزَّوَجَلَّ نسبوا هذه الصفات من الخلق والقدرة والحكمة والإرادة إلى ما يسمونه (بالطبيعة)، فهي التي صدر عنها هذا الخلق العظيم البديع بزعمهم، وهنا نقول لهم: ماذا تقصدون (بالطبيعة)؟ هل هي عاقلة مريدة حكيمة عالمة قادرة؟ لأن هذا الكون العظيم لا يخلقه إلا من له هذه الصفات العظيمة، فإن قالوا: نثبت لهذه الطبيعة الخالقة هذه الصفات ولابد، حينئذ نقول: إن هذه بعض صفات الله الحسنى، فاتركوا كلمة (الطبيعة)، وقولوا (الله عَزَّوَجَلَّ)، ولكنهم هاربون من الله عَزَّوَجَلَّ، فكلما حوصروا بأدلة وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وتفرده بالخلق والإحياء والإماتة والتدبير هربوا منها، ونسبوا ذلك إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ، قال سبحانه: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، وكفى بهذا الإعراض والتكبر ظلمًا وعتوًّا وعدوانًا، والجزاء من جنس العمل.

التقرير الرابع:

إذا استقر الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ في القلب، وأنه المتفرد بالربوبية والألوهية والأسماء الحسنى والصفات العلا، وعرف العبد ربه

سبحانه المعرفة التي عرف بها عباده في كتابه وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الإيمان والسعادة من بابها وأساسها، ووجد العبد نفسه مؤمنًا منقادًا لبقية أصول الإيمان وأركانه، حيث إن من مقتضيات الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ تصديقه سبحانه في أخباره والإذعان له في أحكامه، ومن أخباره سبحانه في كتابه ما أخبر به عن ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، فلزم من الإيمان بالله الإيمان بما أخبرنا به عن بقية الأركان الستة، ومن كفر بشيء منها كفر بالله عَزَّوَجَلَّ لعدم تصديقه في أخباره. إذن فالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ هو أصل الأصول وبابها، الذي يدخل منه إلى الإيمان ببقية الأركان والأصول.

ولكن قد تجول في القلب عند بعض المتأثرين بشبهات خصوم هذا الدين، الذين يثيرون الشبه حول القرآن، وأنه من كلام محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الشبهة ساقطة من أصلها عند من آمن بالله عَزَّوَجَلَّ وأنه عظيم قادر حكيم عادل رحيم، له الأسماء الحسنى، وقد فند هذه الشبهة أهل العلم في القديم والحديث من وجوه كثيرة، وهذه الشبهة لا تستحق الرد، فهي كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وأكتفي بجواب واحد على هذه الشبهة، أنقله مختصرًا من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول: «وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر

من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة، فقلت له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجب من ذلك، وقال مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له: اسمع الآن تقريره، إذا قلتم: إن محمدًا ملك ظالم، قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنة يدعي أنه رسول الله، أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا، وأوحي إليَّ كذا. ولم يكن من ذلك شيء، ويقول: إنه أباح لي سبي ذراري من كذبني وخالفني ونساءهم، وغنيمة أموالهم، وقتل رجالهم. ولم يكن من ذلك شيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم. فلا يخلو: إما أن تقولوا: إن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه، أو تقولوا إنه خفي عنه ولم يعلم به. فإن قلتم لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من علم ذلك أعلم منه. وإن قلتم بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه، فلا يخلو إما أن يكون قادرًا على تغييره، والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا. فإن لم يكن قادرًا فقد نسبتموه إلى العجز المنافي للربوبية، وإن كان قادرًا وهو مع ذلك يعزه وينصره ويؤيده ويعليه ويعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويمكنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات، ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء، إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم

والسفه، الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلًا عن رب الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب، فلما سمع ذلك قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفتر، بل هو نبي صادق، من اتبعه أفلح وسعد. قلت: فما لك لا تدخل في دينه؟ قال: إنما بعث إلى الأميين، الذين لا كتاب لهم، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه. قلت له: غلبت كل الغلب، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق، وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب، وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به، فأمسك ولم يحر جوابًا)[١].

التقرير الخامس:

في هذا التقرير أتوجه بالنصح لكل من وقع في شيء من هذه الوساوس والشكوك بالنصائح التالية:

النصيحة الأولى: الجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ واسأله، وتضرع إليه في أوقات الإجابة، إلى أن يهديك ويثبتك على دينه. وأكثر من الاستعاذة والاستجارة بالله العظيم السميع العليم من الشيطان الرجيم.

النصيحة الثانية: تأمل ما ورد في التقارير السابقة بعقل متزن غير مشوش، فلعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يهديك بسببها.

---

(١) هداية الحيارى (١/ ٨٧، ٨٨).

النصيحة الثالثة: قاطع مجالس أهل الشبهات ومواقعهم وكتبهم، وابتعد عنها، فكم كانت سببًا في زيغ القلوب، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

النصيحة الرابعة: اعلم أن نعيم الروح وسعادتها في الدنيا والآخرة هي في الإيمان وعبادة الله وحده لا شريك له، وأن التعاسة والشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة لمن أعرض عن الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به، والواقع يشهد بذلك، فلقد صرح كثير ممن يعيشون هذه الخواطر الرديئة بأنهم يعيشون في عذاب وعناء وشقاء، لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وأنقل بهذه المناسبة وصية الشيخ الذي سبق ذكره في مناظرة الشاب (حيران)، وانتهت بإيمان الشاب وهدايته، يتحدث فيها عن نعمة الإيمان، فيقول: «اعلم أن الإيمان بالله حق وحاجةٌ وضرورة. فأما أنه حق؛ فقد عرفته مما حدثتك به في تلك الليالي الطوال التي عشتها معي.

وأما أنه حاجة وضرورة فإنك تعلمه، ياحيران، حين تدرك، ويدرك المؤمنون والملحدون قاطبةً على السواء، أن الإيمان بالله هو أُس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وسند العزائم في الشدائد، وبلسم الصبر عند المصائب، وعماد الرضا والقناعة بالحظوظ، ونور

الأمل في الصدور، وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة... وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قربت أيامه.. والعروة الوثقى بين الإنسانية ومُثلها الكريمة...

إلى أن قال: وبدون الإيمان نكون أسوأ حظًّا في الحياة، وأدنى رتبة في سلم المخلوقات من أذل البهائم، وأضعف الحشرات، وأشرس الضواري.

فالبهائم تجوع كما نجوع، ولكنها في نجوة من هم الرزق، وخوف الفقر، وكرب الحاجة، وذل السؤال...

وهي تلد كما نلد، وتفقد أولادها كما نفقد، ولكنها في راحة من هلع المثكلة، وجزع الميتمة، وهم اليتامى المستضعفين..

وهي في أجسادها، تلذذ كما نتلذذ، وتألم كما نألم، ولكنها في راحة مما يأكل القلوب، ويقرح الجفون، ويقض المضاجع، ويقطع الأرحام، ويفرق الشمل، ويخرب البيوت من المهلكات: كالحسد، والكذب، والنميمة، والفرية،

والقذف، والنفاق، والخيانة، والعقوق، وكفر النعمة، ونكران الجميل.

وهي تعرف بنوع من الإدراك ما يضرها وما ينفعها، ولكنها في نجوة من أعباء التكليف، وأثقال الأوزار، ومضض الشك، وكرب الحيرة، وعذاب الضمير..

وهي تمرض كما نمرض، وتموت كما نموت، ولكنها في راحة من التفكير في عُقبى المرض، وفراق الأحباب، وسكرات الموت، ومصير الموتى وراء القبور...

والضواري تسفك الدماء لتشبع بلا سَرَف، ولكنها لا تسفكها أنفًا، ولا جَنفًا، ولا صلفًا، ولا ترفًا... ولا علوّا في الأرض ولا استكبارًا...

أما هذا الحيوان الفيلسوف، الضعيف، الهلوع، الجزوع، الطماع، المختال، الفخور، المترف، المتكبر، المتجبر، السافك الدماء، الذي لا يأتيه شقاء الحياة – أكثر مما يأتيه– إلا من تفكيره؛ فإنه لا علاج لشقائه إلا بالإيمان؛ فالإيمان هو الذي يقويه، وهو الذي يعزيه، وهو الذي يسليه، وهو الذي يُمنيه، وهو الذي يرضيه، وهو الذي يجعله إنسانًا يسعى إلى مثله الأعلى لتسجد له الملائكة.. ومن دون هذا الإيمان يكون هذا الإنسان المسكين أتعس الخلائق وأسوأها حظًّا، وأعظمها شقاءً، وأشدها بلاءً، وأحطها رتبة، وأرذلها مصيرًا)(١).

النصيحة الخامسة:

تأمل معي وتدبر هذه الآيات الكريمات التي تهز القلوب الحية، ولو أنزلت على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

---

(١) قصة الإيمان، نديم الجسر (ص٤٤٠).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت :٩].

وأختم هذه الآيات بآيات من سورة آل عمران تزلزل القلوب، وتهدد من أصر على ضلاله وعناده بعد أن بانت له الحجج والبينات، ثم لم يهتد، واتبع هواه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد يحول بينه وبين التوبة والهداية، عياذًا بالله تعالى:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦-٩١].

وبعد:

فهذا ما يسر الله عَزَّوَجَلَّ من كتابة حول هذا الأمر الجلل والعمل القلبي العظيم، فما كان فيه من حق وصواب فهو من الله عَزَّوَجَلَّ، فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

في ٥/ ١٢/ ١٤٣٧هـ